جامعة ديالى
كلية التربية الاساسية

محاضرات
في
الارشدي

المرحلة الثانية

٢٠١٥

الباب الثاني

الخلافة الراشدة

الفصل الاول

الخلافة الراشدة
في عهد ابي بكر الصديق

أولاً : نشأة نظام الخلافة :

ان سلطات الرسول ﷺ السياسية في قيادة الدولة والمجتمع كانت قد تأسست بصورة تدريجية استناداً الى سلطاته الدينية بصفته رسول الله يتنزل عليه الوحي من السماء بأوامر الله ونواهيه. وقد اوضح القرآن الكريم انه ليس لأحد من الناس ان يدعي لنفسه مثل هذه الصفة في حياة الرسول ﷺ او بعد مماته : ﴿ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (١)

فلما توفي رسول الله ﷺ ، أدرك المسلمون ان صفة الرسالة او النبوة قد انتهت بوفاته لأنه خاتم الأنبياء ، وأن النبوة لا تورث ، فتكون السلطة السياسية المنبثقة عنها هي الأخرى غير قابلة للوراثة ، وتعود بوفاة شاغلها الى اصحابها الأصليين ، وهم ابناء الأمة

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤٠

ليختاروا من يولونه امورهم السياسية طبقاً لما قررته الشريعة الاسلامية من أحكام ، وبما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد تنسجم مع هذه الأحكام .

ويلاحظ ان القرآن الكريم والسنة النبوية قد أوضحا الأسس العامة التي ينبغي على المسلمين مراعاتها في تنظيم حياتهم السياسية مثل المساواة والشورى والعدالة[٢] ، ولكنها لم تنص بصورة جلية لا تقبل التأويل او الخلاف على تحديد طبيعة نظام الحكم وشكله وكيفية اختيار من يتولون السلطة فيه . وربما كانت الحكمة التي تقف وراء ذلك أن نظام الحكم وما يتصل به من قضايا دائمة التغير والتبدل بحسب ظروف الزمان والمكان ، مما يتطلب ترك ذلك لأبناء الأمة يتصرفون فيه طبقاً لأوضاعهم وظروف الزمان الذي يعيشون فيه .

بناء على ما تقدم ، فقد شعر المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ ان عليهم اتخاذ قرارات خطيرة وصعبة لتنظيم حياتهم السياسية بما يضمن المحافظة على وحدة الأمة والدولة ، وهي لم تتحقق الاّ بعد جهاد طويل . وربما كان المسلمون ، وبخاصة كبار الصحابة ، يدركون بصورة عميقة طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت قائمة في المدينة وفي شبه الجزيرة العربية عند وفاة الرسول ﷺ ، والتي كان ينبغي عليهم أخذها بنظر الاعتبار عند اتخاذ قراراتهم ، اذ يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

١. كانت المدينة هي مركز الحياة السياسية والمكان الذي تتخذ فيه القرارات الحاسمة في الدولة لأنها كانت تضم كبار الصحابة الذين عملوا الى جانب الرسول ﷺ طوال حياته ، وكان يعتمد عليهم ويستشيرهم في شتى الأمور .

٢. ان صعوبة المواصلات في ذلك العصر كانت تجعل من الصعب على سكان المدن والأقاليم البعيدة عن المدينة المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية وبخاصة تلك التي تتطلب السرعة والحسم مثل قرار اختيار من يخلف الرسول ﷺ في قيادة الدولة .

٣. كان سكان المدينة يتألفون من الأنصار، وهم ابناء قبيلتي الأوس والخزرج ، والمهاجرين الذين كانوا يتألفون من المهاجرين الأولين من ابناء قبيلة قريش ثم انضاف اليهم على نحو تدريجي مهاجرون من مختلف ابناء القبائل العربية وبخاصة من أسلم ، وغفار ، وأشجع ، ومزينة ، وليث ، وضمرة ، والديل ، وجهينة ، وغيرها[٣] .

---

(٢) القرآن الكريم ، سورة النساء ، الآية ٥٨ ؛ سورة المائدة ، الآية ٨ ؛ سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ ؛ سورة الشورى ، الآية ٣٢ .

(٣) علي : المرجع في تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٣١ .

- وقد ترتب على هذا ان الثقل الاجتماعي والسياسي للمهاجرين في المدينة قد أصبح اكبر من ثقل الأنصار. وقد شعر الرسول ﷺ في أواخر حياته بهذا الأمر فأوصى المهاجرين خيرا بإخوانهم من الأنصار. فقد أورد البخاري ان الرسول ﷺ قال: «ايها الناس، فان الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً او ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»-«(٤)».

٤. ان دخول قبيلة قريش في الاسلام، وانتقال كثير من زعمائها الى المدينة للسكن فيها، قد أعطى لأبناء هذه القبيلة الأرجحية في قيادة الدولة، لأن الرسول ﷺ والمهاجرين الأولين كانوا ينتمون اليها. كما أنه كانت لأبناء هذه القبيلة خبرة واسعة في التجارة والسياسة، وهم يرتبطون بتحالفات قديمة مع مختلف القبائل العربية من خلال نظام الايلاف وادارة مناسك الحج(٥).

ان العوامل الانفة الذكر قد جعلت الأنصار يشعرون بالقلق على مستقبلهم السياسي ويبادرون فور سماعهم بوفاة الرسول ﷺ الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، وهم احد عشائر الخزرج لبحث مسألة من يخلف الرسول ﷺ في قيادة الدولة(٦).

ثانياً: اجتماع السقيفة وانتخاب ابي بكر (رض):

تشير المصادر الى ان بني ساعدة من الخزرج قد بادروا الى عقد اجتماع في سقيفتهم في نفس اليوم الذي توفي فيه الرسول ﷺ أي في يوم الأثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م لترشيح زعيمهم سعد بن عبادة لخلافة الرسول ﷺ في قيادة الدولة(٧).

وسقيفة بني ساعدة هي «ظلة غير واسعة على فسحة من الأرض في منطقة خطط بني ساعدة في الأطراف الشمالية من مسجد الرسول، ... ولم يرد ذكر اجتماع عام فيها في زمن الرسول، الأمر الذي يدل على أنها كانت في الأصل خاصة ببني ساعدة دون غيرهم، وأن الاجتماع لم يستوعب كافة الأنصار الذين كان عددهم كبيراً»(٨).

---

(٤) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج ٢، ص ٦١؛ ابن هشام: السيرة، ق ٢، ص ٦٥٠.

(٥) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج ٢، ص ٤٣١ - ٤٣٣.

(٦) ابن هشام: السيرة، ق ٢، ص ٦٥٩.

(٧) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٦٥٦ - ٦٥٧؛ الطبري: التاريخ، ج ٣، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٨) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج ٢، ص ٤٣٤.

ويبدو من استقراء النصوص التي وصلتنا عن هذا الاجتماع ان بني ساعدة لم يعدوا لهذا الاجتماع اعداداً جيداً ، ولم يدعوا لحضوره كبار الصحابة وبخاصة من المهاجرين ، مما يدل على أنهم لم يكونوا واثقين من أن مرشحهم سيحظى بالقبول والمبايعة (٩) .

وحين وصلت أخبار هذا الاجتماع الى عمر بن الخطاب ، أرسل الى ابي بكر الصديق يدعوه لحضوره لخطورة ما قد يترتب عليه من نتائج . وفي الطريق لقيا ابا عبيدة بن الجراح فصحبهما الى مكان الاجتماع (١٠) .

لقد كانت حجة سعد بن عبادة في ترشيح نفسه للخلافة ، أن الأنصار أحق بهذا الأمر من المهاجرين لأنهم أهل المدينة ، وأنصار الاسلام ، وأنهم «أهل العز والثروة . وأولوا العدد والمنعة والتجربة» (١١)

غير ان ابا بكر الصديق أوضح في كلمته أن المهاجرين من قريش هم أولى من الأنصار بخلافة الرسول ﷺ لأنهم : «أول من عبدالله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الا ظالم» (١٢) . وقد اوضح عمر بن الخطاب للأنصار ان مسألة اختيار خليفة للرسول ليست مسألة خاصة بالمهاجرين والأنصار وحدهم . وانما هي مسألة تهم جميع العرب . لذا فقد خاطبهم قائلا : «والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع ان تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم» (١٣) .

ويبدو أن حجج ابي بكر وعمر قد اضعفت من موقف سعد بن عبادة ، فاقترح الحباب بن المنذر أن يكون على رئاسة الدولة أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين . فرفض عمر بن الخطاب هذا الاقتراح على الفور بقوله : «هيهات لا يجتمع اثنان في قرن» (١٤) أي ان ذلك غير ممكن من الناحية العملية ، وقد يؤدي الى الانقسام والتفرقة . وهنا دب الاختلاف في صفوف مؤيدي سعد بن عبادة فأعلن بشير بن سعد من الخزرج «أن محمداً ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى» (١٥) .

(٩) ابن هشام : السيرة ، ق ٢ ، ص ٦٥٦ - ٦٥٩ .
(١٠) المصدر نفسه ، ق ٢ ، ص ٦٥٦ - ٦٥٧ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .
(١١) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .
(١٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .
(١٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .
(١٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .
(١٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

وهنا بادر ابو بكر الصديق بدعوة الحضور الى مبايعة عمر بن الخطاب او أبي عبيدة بن الجراح ، الاّ أنهما رفضا ذلك ، وقالا : «والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فانك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ابسط يدك نبايعك. فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما اليه بشير بن سعد فبايعه». (١٦)

وهكذا فقد كان أول من بايع ابا بكر الصديق بالخلافة رجل من الأنصار ، فلما «رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأخير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير - وكان أحد النقباء - ، والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم منهم فيها نصيبا ابداً فقوموا فبايعوا ابا بكر ، فقاموا اليه فبايعوه» (١٧) .

وما كاد خبر مبايعة أبي بكر الصديق ينتشر في المدينة حتى أقبلت قبيلة أسلم «بجماعتها حتى تضايق بهم السكك ، فبايعوا ابا بكر ، فكان عمر يقول : ما هو الاّ أن رأيت أسلم ، فأيقنت بالنصر» (١٨) .

وفي اليوم التالي لبيعة السقيفة جلس ابو بكر الصديق على المنبر في مسجد الرسول ﷺ لتلقي البيعة العامة ، فبايعه عموم المهاجرين والأنصار بيعة الخلافة (١٩) .

ويبدو أن خلافة ابي بكر الصديق كانت موضع قبول ورضى من قبل جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وأنهم قد أقبلوا على مبايعته والتعاون معه من دون تردد ، وهو الأمر الذي ينسجم مع روح الأخوة والصحبة التي كانت بينهم (٢٠) . أما الروايات التي تشير الى خلاف ذلك فمن المرجح أنها من وضع العصور التالية على عصر الرسالة والراشدين (٢١) . وان مما يؤكد ذلك ما روى عن علي بن ابي طالب في نهج البلاغة : «.. وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فان اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله

(١٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(١٧) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(١٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(١٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٠ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

(٢١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ؛ طه حسين : الشيخان ، مصر ١٩٦٩ ، ص ٣٦ - ٣٩ .

رضا ، فان خرج من أمرهم خارج بطعن او بدعة ردوه الى ما خرج منه ، فان ابى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين »(٢٢)

وهكذا فقد أصبح ابو بكر الصديق أول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ . وقد عرفت الخلافة بانها « خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا »(٢٣) فكان ابو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ في امته . وقد أصبح من المقرر لدى الفقهاء استناداً الى هذه السابقة التاريخية أنه لا يجوز لأحد ان يتولى الخلافة الاّ عن طريق البيعة ، وهي : « العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد اميره على انه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره »(٢٤) .

ويلاحظ من هذا التعريف للبيعة أنه لم يبرز ما تنطوي عليه البيعة من اعتراف بأن الأمة مصدر السلطات ، وأنه لا يجوز للخليفة أن يتولى السلطة الاّ بموافقة أبناء الأمة التي يعبرون عنها عن طريق البيعة . وقد أوضح عمر بن الخطاب أهمية هذا المعنى من البيعة بقوله : « فمن بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين فانه لا بيعة له هو ولا الذي بايعه »(٢٥) .

وقد جاءت خطبة ابي بكر الصديق التي ألقاها في المسجد بعد مبايعته « بيعة العامة » لتعبر عن فهمه للخلافة وما ترتبه عليه من حقوق والتزامات ، فقال : « ايها الناس ، فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فأن أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقّه ان شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الاّ ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط الاّ عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »(٢٦) .

---

(٢٢) ابن ابي حديد : شرح نهج البلاغة ، مصر ١٩٦١ ، ج ١٤ ، ص ٣٥ .

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ، ط ٣ ، ص ١٩١ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٢٥) ابن هشام : السيرة ، ق ٢ ، ص ٦٥٨ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ق ٢ ، ص ٦٦١ .

لقد قرر الخليفة الأول في خطبته هذه ، جملة أمور عن نظام الخلافة في الاسلام فضلا عما تقدم ، منها :

١. ان الخليفة هو شخص اعتيادي من المسلمين ، وهو من بعد لا يمتلك سلطات روحية متميزة عن غيره من الناس «قد وليت عليكم ولست بخيركم» .
٢. ان الخليفة هو وكيل عن الأمة في رعاية الصالح العام ، ومن ثمة فعلى الأمة مراقبته في اثناء القيام بواجباته ، فان أحسن فعليهم معاونته ، وان أساء فعليهم تقويمه .
٣. ان من واجبات الخليفة اقامة العدالة بين الناس والجهاد في سبيل الله .
٤. ان الخليفة ليس حاكماً مطلقاً من الناحية التشريعية ، بل هو مقيد بأحكام القرآن والسنّة ، فان خرج عليها فلا طاعة له على الناس .

ثالثاً : اعمال ابي بكر الصديق (رض) :

لقد باشر ابو بكر الصديق واجباته في شؤون ادارة الدولة والسهر على مصالحها بعد مبايعته بالخلافة مباشرة ، وكانت أهم الأعمال التي قام بها هي :

٣- انفاذ بعث اسامة :

لقد كان الرسول ﷺ قد جهز حملة بقيادة أسامة بن زيد لارسالها الى بلاد الشام ، الاّ أن مرض الرسول ﷺ ووفاته قد أخرت توجه هذه الحملة الى هدفها . فلما تمت البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة كان أول عمل أمر بتنفيذه غداة بيعته هو انفاذ بعث اسامة . فقد ذكر الطبري أنه قد «نادى منادي ابي بكر ، من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ : ليتم بعث اسامة ، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة الاّ خرج الى عسكره بالجرف»(٢٧) .

لقد ضمّ جيش أسامة عدداً كبيراً من الصحابة من أهل المدينة فضلا عن ابناء القبائل المقيمة حول المدينة والتي لم تساهم مع الرسول ﷺ في عام الحديبية . ويبدو أنه كان ثمة تردد بين الصحابة بشأن أمر ارسال هذه الحملة في هذا الوقت الذي بدأت تتردد فيه أخبار عن ردّة بعض القبائل العربية . الاّ أن ابا بكر الصديق قد أصر على ارسالها تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ(٢٨) . كما شكا بعض الصحابة من تأمير أسامة بن زيد على

(٢٧) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .
(٢٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

الجيش ، وفيه بعض كبار الصحابة ، وطلبوا من عمر بن الخطاب ان يكلم ابا بكر الصديق بشأن تبديله . فلما فعل ذلك عمر ، رد عليه ابو بكر الصديق بغضب قائلا : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن انزعه »[٢٩] .

وهكذا فقد انطلق جيش اسامة من المدينة في آخر شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ[٣٠] ، وخرج ابو بكر الصديق في توديعه ، حيث قال لأسامة : « اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم أئت آيل ، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ ... »[٣١] ، وقد طلب ابو بكر الصديق من أسامة أن يأذن له بتخلف عمر بن الخطاب عن هذا الغزوة لحاجته الماسة اليه في ادارة الدولة فأذن له بذلك[٣٢] .

لقد قام أسامة خلال هذه الحملة بأعمال تعرضية خفيفة ضد قبائل قضاعة وآيل ، « فسلم وغنم » ثم عاد الى المدينة بعد ان مكث في تلك الديار أربعين يوما[٣٣] . وبذلك امتد غيابه عن المدينة حوالي سبعين يوماً[٣٤] . كان ابو بكر خلالها أحوج ما يكون الى قوة هذا الجيش لاستخدامه في مواجهة حركات الردة التي تصاعدت حدتها في هذه الفترة .

٢ – مقاومة حركات الردة :

تعني كلمة الردة في اصطلاح الفقهاء العودة عن الاسلام الى الكفر ، وعقوبة المرتد في الشريعة الاسلامية هي القتل عملا بقول الرسول ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه »[٣٥] .

غير ان هذا المصطلح أطلق في زمن ابي بكر الصديق على افراد وفئات عريضة من الناس كانوا قد خرجوا على طاعة الدولة اما بسبب نقضهم للعهود التي كانت بينهم وبينها ، او بسبب امتناعهم عن دفع الزكاة او اصرارهم على الشرك وعدم الدخول في

(٢٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ .
(٣١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ٢٢٦ – ٢٢٧ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .
(٣٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .
(٣٥) الصنعاني : سبل السلام ، القاهرة ١٣٥٧ هـ ، ج ٣ ، ص ٣٥٤ .

الاسلام ، او كفرهم بالاسلام واتباع الأنبياء الكذابين من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطليحة الأسدي وسجاح التيمية (٣٦) .

والحقيقة ان الردة حسب هذا المفهوم الواسع كانت قد بدأت في أواخر عهد الرسول ﷺ ، اذ أن كثيراً من القبائل العربية كانت قد أعلنت دخولها في الاسلام بعد السنة التاسعة للهجرة بمعنى قبول سلطة الرسول السياسية والاعتراف بسيادة الاسلام في ديارهم . أما مسألة اعتناق كل فرد من أفراد هذه القبائل الاسلام وتفقهه بأحكامه فقد كانت تتطلب وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً ، مما لم يتم تحقيقه في الفترة القصيرة التي عاشها الرسول ﷺ بعد دخول هذه القبائل في الاسلام . بل ان بعض هذه القبائل قد جاهرت بكفرها قبل وفاة الرسول ﷺ وظهر بينها من يدعي النبوة مثل الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب .

لقد كانت حركات الردة مظهراً من مظاهر العصبية القبلية التي ترفض الانصهار والتوحد في اطار الاسلام ودولته ، وكانت حروب ابي بكر الصديق للمرتدين تعبيراً عن حرصه على تحقيق هذه الوحدة واستكمال ما بدأه الرسول ﷺ في هذا المجال (٣٧) .

ومن أجل توضيح الأبعاد التاريخية لتطور هذه الحركات سنبدأ بدراسة حركات الأنبياء الكذابين وكيف تداخلت وتحالفت مع حركات الانتقاض على خلافة ابي بكر الصديق والامتناع عن دفع الزكاة ومحاربة الدولة الاسلامية .

أ. حركة الأسود العنسي :

يبدو أن نزول الوحي على الرسول ﷺ ونجاحه في قيادة العرب استناداً الى صفته الدينية قد أغرى بعض كهان العرب لادعاء النبوة ودعوة قومهم للايمان بهم وتسليم قيادتها لهم وكان من جملة هؤلاء الكهان ، عبهلة بن كعب ، الذي عرف بالأسود العنسي ، ربما لسواد بشرته ، وكان يكنى « ذو الخمار » (٣٨) . فقد ذكر الطبري أن الأسيود كان « كاهناً شعباذا — أي مشعوذا — وكان يريهم الأعاجيب ويسبي قلوب من سمع منطقه » (٣٩) . كما ذكر انه كان « معه شيطان وتابع له » (٤٠) ، وأن هذا الشيطان كان

---

(٣٦) العلي : الردة في عهد الرسول ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ — ٤٤٨ .

(٣٧) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣٨) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ١٨٥ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ٣ ، ص ١٨٥ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ .

يحرسه ويحيطه علما ببعض الأمور[٤١] كما ذكر البلاذري أن الأسود قد سمي نفسه رحمان اليمن[٤٢]، مما يوحي بأنه كان قد ادعى الألوهية «وهو ما لم يقل به أحد من الرواة»، فالراجح ان تعبير البلاذري غير دقيق، وأن الأسود دعا الى عبادة رحمان اليمن، أي انه لم يدع الى عبادة أحد آلهة النجوم التي كانت تعبد قديما في اليمن، وانما دعا الى عبادة اله سماوي سلطانه مقصور على اليمن، وليس بعالمي، ولكن المصادر لم تذكر تفاصيل عن الأفكار الدينية التي دعا اليها، ولم تذكر انه وضع لاتباعه طقوسا او فرائض او تنظيمات محددة»[٤٣].

لقد كان الأسود العنسي يضع خماراً على وجهه على عادة الكهان، لذا سمي «ذو الخمار»، فكان «متخمراً معتماً أبداً»[٤٤]. كما أشار البلاذري الى انه كان يدعى ذو الخمار لأنه «كان له حمار معلم يقول له اسجد لربك فيسجد، ويقول له ابرك فيبرك فسمي ذا الحمار»[٤٥].

ويبدو أن الأسود قد بدأ دعوته لنفسه بصورة سرية واستطاع في البداية ان يكسب لجانبه قومه من عنس احدى بطون قبيلة مذحج، ثم أخذ اتباعه في الأزدياد بعد الاعلان عن نفسه وذلك قبل وفاة الرسول ﷺ بحوالي أربعة اشهر[٤٦]، حتى تمكن من بسط سيطرته على اجزاء واسعة من أرض اليمن. يقول الطبري: وغلب الأسود على ما بين صهيد- مفازة حضرموت- الى عمل الطائف الى البحرين قبل عدن، وطابقت عليه اليمن... وجعل يستطير استطارة الحريق»[٤٧].

ولم يحاول الأسود العنسي الاتصال بالرسول ﷺ او مد نفوذه الى خارج حدود اليمن، مما يدل على ان حركته كانت ذات طابع أقليمي محدود، وأن العصبية القبلية كانت هي المحرك الأساس لها[٤٨].

(٤١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٤٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٣.

(٤٣) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(٤٦) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٢٤٠.

(٤٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٤٨) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج ٢، ص ٤٦٨- ٤٦٩.

لقد عمل الرسول ﷺ على مقاومة الأسود من خلال الوسائل الدبلوماسية وتحريض المسلمين في اليمن على مقاومته « فحاربه النبي (عليه السلام) بالرسل والكتب حتى قتله الله ، وعاد امر النبي (عليه السلام) ، كما كان قبل وفاة النبي (عليه السلام) بليلة »[٤٩] . وقد تم ذلك من خلال قيام قيس بن مكشوح بالتعاون مع اثنين من زعماء الأبناء وهم فيروز وداذويه في قتله ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول من سنة ١١ هـ ، اي قبيل وفاة الرسول ﷺ ، وقد وصل خبر مقتله الى المدينة بعد مبايعة ابي بكر الصديق بالخلافة[٥٠] .

لقد كان مقدرا لليمن أن تستقر فيها الأوضاع بعد مقتل الأسود العنسي ، غير ان وفاة الرسول ﷺ المفاجئة ، قد قوّت من عزيمة اتباع الأسود العنسي على مواصلة خروجهم على الدولة فضلا عن بعض ذوي الطموح السياسي من أمثال قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معد يكرب[٥١] . فاضطر ابو بكر الصديق الى محاربتهم بما حاربهم به الرسول ﷺ في البداية بالكتب والرسل[٥٢] ، حتى عاد بعث اسامة إلى المدينة ، ثم قام بتوجيه الجيوش الى اليمن وغيرها حيث تم له القضاء على المرتدين واعادتهم الى حضيرة الاسلام . ويبدو أن دوافع ردة اليمن الثانية كانت الرغبة في الاستقلال عن الدولة وعدم دفع الزكاة . يقول البلاذري « وارتدت خولان فوجه اليهم ابو بكر يعلى بن منبه فقاتلهم حتى أذعنوا وأقروا بالصدقة »[٥٣] . كما ذكر الطبري في اخباره عن ردة حضرموت ان المرتدين قالوا : « لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلوا لأحد الفريقين ، فأجمعوا وعسكروا جميعاً ، ونادوا بمنع الصدقة »[٥٤] .

---

(٤٩) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣١٨ .

(٥٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١١٤ .

(٥١) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٢٣ - ٣٢٧ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣١٩ .

(٥٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١١٢ .

(٥٤) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٣٣ .

٤ - حركة طليحة بن خويلد الأسدي

كان طليحة كما يقول الجاحظ «خطيبا، وشاعرا، وسجاعا وكاهنا، ناسبا»(٥٥). وقد أهله هذه الصفات لأن يكون ضمن وفد قبيلته أسد حينما قدموا الى المدينة في سنة تسع للهجرة لمقابلة الرسول ﷺ. وقد ذكر ابن سعد أن سلوك هذا الوفد في اثناء مقابلته للرسول ﷺ قد اتسم بالجفاء والتعالي. فقد قال ضمرمي بن عامر للرسول ﷺ: «اتيناك نتذرع الليل البهيم، في سنة شهباء، ولم تبعث الينا بعثا. فنزل فيهم: ﴿يمنون عليك ان اسلموا﴾(٥٦) ....»(٥٧).

ويبدو من النص المتقدم ان طليحة قد أسلم مع بقية أفراد قومه الذين جاؤوا ضمن هذا الوفد، غير انه لم تصلنا معلومات حول أوضاعه حتى تنبأ وادعى أنه ينزل عليه الوحي وذلك في بداية سنة ١١ للهجرة بعد عودة الرسول ﷺ من حجة الوداع(٥٨).

وقد ذكر الطبري ان طليحة حين تنبأ قام بارسال ابن أخيه حبال الى النبي ﷺ يدعوه الى الموادعة ويخبره أنه قد نزل الوحي على عمه طليحة بوساطة ملك يدعى ذوالنون. فرفض الرسول ﷺ الموادعة معه او الاعتراف بمزاعمه ودعى عليه بالهلاك(٥٩).

وقد أشار الطبري الى ان طليحة كان يزعم أنه ينزل عليه جبريل بالوحي، وقد أورد عنه بعض الجمل المسجوعة ذات المضمون الضحل نحو قوله: «ان لك ربا كرحاه، وحديثا لاتنساه»(٦٠)، «والحمام واليمام، والصرد الصوام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغن ملكنا العراق والشام»(٦١).

لقد عمل الرسول ﷺ على محاربة طليحة عن طريق ارسال الرسل الى عماله على بني أسد يحذرهم منه ويدعوهم الى مقاومته. ويبدو أنهم قد نجحوا في مسعاهم الى حد كبير

---

(٥٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٥٩.

(٥٦) سورة الحجرات، الآية ١٧، ونصها الكامل: ﴿يمنون عليك أن اسلموا، قل لاتمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين﴾.

(٥٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٩٢.

(٥٨) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ١٨٤-١٨٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٥٩.

(٦١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٠.

حتى انهم «أشبهوا طليحة وأشاروه»[٦٢] ، غير ان وفاة الرسول ﷺ قد اتاحت المجال لطليحة - ان يجتذب الى صفه الكثير من ابناء قبيلته وحلفائهم من طيء وغطفان وغيرهم[٦٣] . وكان للعصبية القبلية دورها الكبير في انجاز هؤلاء الناس الى طليحة . وقد عبّر عن هذا الدافع بصورة جلية عيينة بن حصن زعيم غطفان حين قرر الردة فقال لقومه : «والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أعجب الينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد ، وبقي طليحة ، فطابقوه على رأيه ، ففعل وفعلوا»[٦٤]

وقد عبّر أحد شعراء المرتدين عن مثل هذا الموقف الانفصالي عن الدولة الذي تحركه العصبية القبلية بقوله :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً اذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[٦٥]

والحقيقة أن النصوص التي بين أيدنا عن كثير من هؤلاء المرتدين تثبت أن هؤلاء الناس لم يدخلوا الاسلام من قبل الاّ بصورة ظاهرية ، وأن الايمان لم يتغلغل الى قلوبهم . وقد قرر القرآن الكريم هذه المسألة بصورة واضحة حين قال : ﴿قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[٦٦] . وقد ذكر الطبري أن عيينة بن حصن زعيم غطفان حين أسر وجيء به الى المدينة في اثناء حروب الردة ، فكان غلمان المدينة ينخسونه بجريد النخيل ويقولون له : «أي عدو الله أكفرت بعد ايمانك ، فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط»[٦٧] .

لقد ارسلت القبائل العربية التي ارتدت مع طليحة الأسدي وفودا الى المدينة بعد عشرة ايام من وفاة الرسول ﷺ طالبة من أبي بكر الصديق أن يعفيها من أداء الزكاة مقابل استمرارهم على أداء الصلاة . غير ان ابا بكر الصديق ، رفض هذا الطلب بحزم ،

---

(٦٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .
(٦٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .
(٦٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٦ .
(٦٦) سورة الحجرات ، الآية ١٤ .
(٦٧) الطبري : التاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

عشر لواء على أحد عشر جنداً، وأمر امير كل جند باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة وتخلف بعض أهل القوة لمنع بلادهم »(٧٣).

وقد جعل ابو بكر الصديق مهمة قتال طليحة الأسدي ومن لحق به من طيئ وغطفان وغيرها من القبائل الى خالد بن الوليد ، وكانوا قد تجمعوا عند ماء من مياه بني أسد يدعى بزاخة ، فسار اليهم ، وقاتلهم قتالا شديدا حتى تفرقت صفوفهم وفرّوا هاربين ، وكان على رأس الهاربين طليحة الأسدي(٧٤) ، فلما رأت القبائل التي كانت تنتظر نتيجة الصراع لتحدد على ضوئه موقفها بعد ما «أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع ، أقبل أولئك يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا »(٧٥).

وقد أشير الى ان طليحة الأسدي قد عاد للاسلام ، بعد أن « بلغه ان أسدا وغطفان وعامرا قد أسلموا ، ثم خرج نحو مكة معتمراً في امارة ابي بكر، ومر بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة ، فقال : ماأصنع به خلّوا عنه فقد هداه الله للاسلام ، ومضى طليحة نحو مكة فقضى عمرته »(٧٦) . وقد ذكر البلاذري ان طليحة التحق بعد ذلك بقوات الفتح فساهم في حروب تحرير العراق في معارك القادسية ونهاوند وغيرها(٧٧).

ج . حركة مسيلمة الكذاب :

ينتمي مسيلمة بن حبيب الى قبيلة بني حنيفة القوية ، التي كانت تقيم في منطقة اليمامة في الأطراف الشرقية من هضبة نجد(٧٨) . ويبدو أن زعماء هذه القبيلة قد أثار اهتمامهم مدى النجاح الذي حققه الرسول ﷺ في توحيد القبائل العربية حول قيادته استناداً الى دعوته الدينية ، فأرادوا مشاركته في نفوذه السياسي من دون ان يؤمنوا بالدعوة الاسلامية او يستوعبوا قيمها الحقيقية ، فقد ذكر ان الرسول ﷺ كتب بعد صلح الحديبية الى هوذة بن علي الحنفي زعيم قبيلة حنيفة يدعوه الى الأسلام فأرسل اليه هوذة وفداً ومعه رسالة الى الرسول ﷺ يسأله فيها «أن يجعل الأمر له من بعده على ان يسلم

(٧٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .
(٧٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ –، ٢٥٣ – ٢٥٦ .
(٧٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .
(٧٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦١ .
(٧٧) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٠٥ ، ٢٠٩ .
(٧٨) العلي : الدولة في صدر الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٣١ ، ٥٣٨ .

وقال : لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه . وأجلهم يوماً وليلة لإعلان خضوعهم الكامل للدولة كما كانوا يفعلون على عهد رسول الله ﷺ (٦٨) .

ويبدو ان المرتدين كانوا يحاولون من خلال هذا العرض التملص بصورة تدريجية من التزاماتهم تجاه الدولة والعودة الى أوضاعهم السابقة على الاسلام فلما رفض ابو بكر طلبهم بعد أن اكتشف حقيقة مقصدهم ، عادوا الى عشائرهم ليخبروهم بقلة عدد المسلمين وليحرضوهم على مهاجمة المدينة .

لقد شرع ابو بكر الصديق فور مغادرة وفود المرتدين على تشديد الحراسة على المدينة والاستعداد للدفاع عنها ريثما يعود أسامة من مهمته ، فوضع على مداخل المدينة سرايا بقيادة بعض كبار الصحابة وهم علي بن ابي طالب ، والزبير ، وطلحة ، وعبدالله بن مسعود (٦٩) . كما دعا أهل المدينة للاجتماع في المسجد ، وقال لهم : « ان الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وانكم لاتدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون ان نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبذنا اليهم عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا » (٧٠) .

ويلاحظ ان المرتدين لم ينجحوا في استغلال فترة غياب جيش أسامة عن المدينة في تحقيق مكاسب حقيقية ضد المسلمين ، وكان كل ما قاموا به غارة خفيفة على تخوم المدينة ، قام ابو بكر بصدها ومطاردة المشاركين فيها (٧١) . فلما عاد جند اسامة طلب منهم ابو بكر الصديق البقاء في المدينة ريثما يحصلون على بعض الراحة ، ثم خرج بمن معه من المسلمين « حتى انتهى الى الربذة يلقى بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة فلقيهم بالأبرق فقاتلهم ، فهزمهم الله وفلهم ، ثم رجع الى المدينة » (٧٢) .

لقد قام أبو بكر الصديق بعد عودة جيش أسامة الى المدينة واجتماع القبائل العربية المسلمة حول قيادته ، وكانت أغلبها من عرب الحجاز تقع مواطنهم بين مكة والمدينة ، بتنظيم الجيوش وارسالها لقتال المرتدين في مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية ، فعقد « أحد

---

(٦٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ، ٢٥٨ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

(٧١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

- ان المعلومات المتوفرة لنا عن حياة مسيلمة الكذاب قبل ادعائه النبوة وبعدها لاتشير الى انه كان يمتلك من المؤهلات الزوجية او التجارب الفكرية مايسوغ ولو بصورة ضعيفة اقدامه على مثل هذا الادعاء الخطير. فقد ذكر الجاحظ ان طليحة الأسدي كان «خطيباً وشاعراً، وشجاعاً كاهناً ناسباً، وكان مسيلمة الكذاب، بعيداً عن ذلك كلّه»(٨٧).

لقد كان المحرك الأساس الذي دفع مسيلمة لادعاء النبوة هو الطموح السياسي والعصبية القبلية. وكانت العصبية القبلية هي العامل الذي دفع الكثير من أفراد قبيلة حنيفة لمناصرة مسيلمة على الرغم من معرفتهم بكذب مزاعمه. ذكر الطبري أن عمير بن طلحة النميري روى عن ابيه انه جاء الحمامة، فقال: «اين مسيلمة؟ قالوا مه رسول الله! ! فقال: لا، حتى أراه، فلما جاء، قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: من يأتيك؟ قال: رحمن، قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال؛ في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذّاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب، ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»(٨٨).

لقد أوردت لنا المصادر بعضاً من أقوال مسيلمة التي حاول أن يقلد فيها أسلوب القرآن الكريم من حيث إستخدام السجع في التعبير. إلاّ ان هذه الأقوال ضعيفة من حيث البلاغة والمضمون نحو قوله: «لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر إبرار تصومون يوماً، وتكلفون يوماً»(٨٩)، و«سمع اللّم لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار»(٩٠).

لقد إستطاع مسيلمة الكذاب أن يجمع حوله معظم رجال قبيلة حنيفة بفعل عامل العصبية القبلية، وقد تفاقم خطره بعد وفاة الرسول ﷺ وظهور أنبياء كذابين آخرين في مناطق أخرى من شبه جزيرة العرب كما قدمنا، الأمر الذي تطلب من خليفة رسول الله الأول أن يعمل على مجاهدتهم الواحد تلو الآخر من أجل المحافظة على وحدة الأمة والدولة من التمزق والانحراف.

---

(٨٧) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٥٩.

(٨٨) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٨٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٢.

(٩٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧١.

ويصير اليه فينصره »[٧٩] ، فرفض الرسول ﷺ طلبه . كما أشير الى أنه كان في أعضاء الوفد مسيلمة الكذاب ، فقال للرسول ﷺ : « ان شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على انه لنا بعدك ، فقال له رسول الله ﷺ ، لا ولا نعمة عين ، ولكن الله قاتلك »[٨٠] .

وقد أشارت المصادر الى ان أحد اعضاء وفد بني حنيفة وهو الرجال بن عنفوة كان قد أسلم وقرأ سورة البقرة وسورا من القرآن[٨١] . وذكر الطبري انه « كان قد هاجر الى النبي ﷺ ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة ، وليشد من أمر المسلمين »[٨٢] ، الاّ انه ارتد عن الاسلام وأيد مسيلمة في دعواه ، « فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمداً ﷺ يقول : انه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له »[٨٣] .

ان ماتقدم يثير الشكوك حول دوافع اعتناق الرجال بن عنفوة للاسلام ، وهل هذه الدوافع كانت صادقة ام أنها خدعة مدبرة الغاية منها دراسة الاسلام والتظاهر بأنه قد صار من المسلمين كي يتمكن من الكيد بعد ذلك بصورة عميقة ومؤثرة للاسلام والمسلمين ، وهو ماقام به فعلاً .

لقد قام مسيلمة بعد توطيد نفوذه في اليمامة بكتابة رسالة الى الرسول ﷺ ، وذلك في آخر سنة عشرة للهجرة[٨٤] ، اي قبل وفاته بأشهر قليلة ، جاء فيها : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله : سلام عليك ، اما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون »[٨٥] . فكتب له رسول الله ﷺ مانصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، الى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين »[٨٦] .

---

(٧٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٩٧ .
(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .
(٨١) المصدر نفسه ، ٩٧ .
(٨٢) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .
(٨٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .
(٨٤) ابن هشام : السيرة ، ق ٢ ، ص ٦٠١ .
(٨٥) المصدر نفسه ، ق ٢ ، ص ٦٠٠ .
(٨٦) المصدر نفسه ، ق ٢ ، ص ٦٠٠ - ٦٠١ .

يعطيها نصف غلات اليمامة لذلك العام[٩٧]، وأن يتزوجها. وقد أفصح مسيلمة عن الدوافع الحقيقية التي تحركه حين قال لسجاح: «هل لك أن أتزوجك، فآكل بقومي وقومك العرب، قالت: نعم»[٩٨].

وعلى الرغم من زواج مسيلمة من سجاح، فإن المصادر لا تشير الى قتال سجاح وقومها الى جانب مسيلمة حينما جاءته جيوش خالد بن الوليد لقتاله، بل أنهم تركوه ليلقى مصيره[٩٩]. أما سجاح فقد رجعت الى الجزيرة عند أخوالها بني تغلب، فلم تزل عندهم حتى أسلمت وهاجرت الى البصرة وحسن إسلامها[١٠٠].

لقد كان مسيلمة يقود أقوى وأخطر حركة ردة ضد الدولة الاسلامية بحكم قوة أنصاره من بني حنيفة[١٠١]، لذا فقد قام أبو بكر الصديق بتكليف خالد بن الوليد بأن يحشد أقصى ما لديه من قوة للقضاء عليها بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل في تحقيق هذا الهدف[١٠٢].

وقد توجه خالد الى اليمامة لمحاربة مسيلمة في السنة الثانية عشر للهجرة بعد أن تم القضاء على معظم حركات الردة وبسط سلطان الدولة الاسلامية على مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية مما أضعف مسيلمة وعزل حركته في مساحة ضيقة[١٠٣]. وقد تمكنت قوات خالد بن الوليد من دحر جيش مسيلمة في معركة شهيرة عرفت بمعركة حديقة الموت لكثرة من قتل فيها من المرتدين وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب نفسه. كما إستشهد فيها عدد كبير من المسلمين إختلفت المصادر في تقديره[١٠٤]، وكان أكثر التقديرات إعتدالاً يشير الى أن قتلى المسلمين كانوا حوالي أربعمائة وخمسين رجلاً منهم مائة وأربعون من المهاجرين والأنصار[١٠٥].

---

(٩٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٢، ٢٧٥.

(٩٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص٢٧٣.

(٩٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص٢٧٥.

(١٠٠) البلاذري: فتوح، ص١٠٨، الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٧٥.

(١٠١) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص ٢٤٧.

(١٠٢) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص٢٨١.

(١٠٣) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٨، البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٠٢، الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٢٩٤، ٢٩٦-٢٩٧.

(١٠٥) ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ٧٧.

وكان مما زاد من خطورة مسيلمة الكذاب أنه إستطاع أن يضم الى حركته إحدى مدعيات النبوة ، وأن يتزوجها وهي سجاح التميمية (٩١) . وكانت سجاح قد نشأت عند إخوالها بني تغلب في منطقة الجزيرة ، فأصبحت راسخة المعرفة بأمور الديانة النصرانية «قد علمت من علم نصارى تغلب» (٩٢) ، غير أنها لم تعتنق هذه الديانة ، «وتكهنت فإتبعها قوم من بني تميم وقوم من أخوالها بني تغلب» (٩٣) ، ثم لم تلبث أن أدعت النبوة بعد وفاة الرسول ﷺ (٩٤) . فتابعها بعض بني تميم لاعتبارات سياسية تتصل بالرغبة في الانفصال عن دولة المدينة وعدم دفع الزكاة. وكان من ابرز من تعاون معها مالك بن نويرة وهو ينتمي مثلها الى عشيرة بني يربوع التميمية . وإن مما يؤكد أن تعاون مالك بن نويرة وغيره مع سجاح كان لاعتبارات سياسية وليست دينية ماذكره الطبري من أن سجاحاً راسلت مالك بن نويرة ودعته الى الموادعة ، فأجابها ، وفثأها عن غزوها ، وحملها على احياء من بني تميم ، قالت ؛ نعم فشأنك بمن رأيت ، فإني إنما أنا إمرأة من بني يربوع ، وإن كان ملك ، فالملك ملككم» (٩٥) .

غير أن بني تميم كانوا منقسمين ، لايعرفون هل يبقون على إسلامهم وولائهم بعد وفاة الرسول ﷺ ، أم يرتدون ويتابعون سجاحاً ، وهم يعرفون أنها مدعية للنبوة . وربما كانت الأبيات الآتية تعبر عن هذه الحيرة . «قال عطارد بن حاجب :

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وقال حكيم بن عياش .. وهو يعير مضر بسجاح ، ويذكر ربيعة :

أتوكم بدين قائم وأتيتم ... بمنتسخ الآيات في مصحف طب» (٩٦)

في ضوء ما تقدم ، فقد قررت سجاح أن تتجه الى اليمامة حيث يقيم مسيلمة الكذاب ، بمن أتبعها من تغلب وتميم عسى أن تصل معه الى إتفاق وتوحيد الموقف . ويبدو أن مسيلمة كان هو الآخر يشعر بالضعف ويتطلع الى الاتفاق معها . لذا فقد عرض أن

(٩١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .
(٩٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .
(٩٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٠٨ .
(٩٤) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .
(٩٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .
(٩٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

إن إنتصار المسلمين في معركة حديقة الموت على المرتدين من إتباع مسيلمة الكذاب، قد وضع حداً لحركات الردة في شبه الجزيرة العربية، وساعد في توحد الأمة تحت قيادة خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق (رض) وكان من أهم أسباب نجاح المسلمين في مواجهة مخاطر الردة حزم وصلابة أبي بكر الصديق في إتخاذ القرارات ووقوف عرب الحجاز من اهل مكة والمدينة والطائف وراء قيادته الحكيمة، بالاضافة تفرق حركات الردة وعدم التنسيق فيما بينها وإنكماش كل واحدة منها على نفسها ضمن سياسة دفاعية ضعيفة حتى تمت تصفيتها الواحدة تلو الأخرى. وإذا كان لابد من الاشارة الى دور بطل كانت له مساهمة متميزة في القضاء على حركات الردة في الميدان العسكري، فلا شك أن ذلك البطل كان خالد بن الوليد المخزومي الذي قاد أهم المعارك وأخطرها ضد المرتدين طول السنة الأولى من خلافة أبي بكر الصديق.

٣ـ البدء بتحرير العراق والشام:

يميل الباحثون المعاصرون الى التساؤل عن الدوافع التي حملت أبا بكر الصديق على إتخاذ قرار المباشرة بحروب تحرير العراق والشام على الرغم مما فيها من صعوبات ومخاطر، إذ أنها كانت تعني الدخول في حرب مع أكبر إمبراطوريتين في العالم في ذلك الوقت، وهما الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية(١٠٦).

ولا تقدم لنا المصادر التاريخية جواباً مباشراً عن هذا التساؤل الخطير، ويبدو أن أبا بكر الصديق وكبار الصحابة الذين من حوله لم يكونوا ينظرون الى الأمور بعقلية إستقرائية باردة كما ينظر إليها العديد من رجال السياسة والحرب في الوقت الحاضر. لقد كانوا يعيشون حرارة العقيدة والجهاد ويتطلعون الى مواصلة الرسالة التي حملها الرسول ﷺ الى العرب والانسانية. لذا فقد أعلن أبو بكر الصديق بعد مبايعته بالخلافة مباشرة إلتزامه بمواصلة سياسة الجهاد، وذلك لأنه «لايدع قوم الجهاد في سبيل الله الاّ ضربهم الله بالذل»(١٠٧).

أطلق المؤرخون المسلمون على حروب التحرير مصطلح «الفتوحات» وهي لا تعني التغلب والقهر، كما يرى بعض المؤرخين المعاصرين، وانما هي تعني إعلاء كلمة الله في الأرض وإظهار الحقيقة للناس، (راجع: القرآن الكريم، سورة الفتح، الآية ١ – ٣، سورة النصر، الآية ١ – ٣، وات: محمد في المدينة، ٩٩ – ١٠٠.

(١٠٦) راجع على سبيل المثال، اللبوزي: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ص ٤٤ – ٤٧؛ عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ص ١٦١ – ١٦٧

(١٠٧) ابن هشام: السيرة، ق ٢، ص ٦٦١.

ومن ثم فقد قام بإرسال بعثة اسامة الى بلاد الشام لمحاربة حلفاء الامبراطورية البيزنطية تنفيذاً لسياسة الرسول ﷺ في هذا المجال على الرغم من مخاطر حركات الردة التي إشتد اوارها في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية.

ولم يكد أبو بكر الصديق ينتهي من تصفية حركات الردة في السنة الأولى من حكمه حتى حشد كل طاقاته من أجل تحرير العراق والشام، فهل كان ثمة عوامل ظاهرة أو خفية تدفع أبا بكر الصديق من أجل إتباع هذه السياسة فضلاً عن حرصه على مواصلة السياسة التي بدأها الرسول ﷺ في هذا المجال؟ وهل كان محيطاً بمدى قوة الامبراطوريتين التي سيتصدى لمحاربتها تنفيذاً لهذه السياسة؟.

١. لقد أشير الى أن شبه الجزيرة العربية كانت شحيحة في مواردها الاقتصادية بسبب مناخها الصحراوي مما كان يحمل أبناء القبائل العربية على الصراع من أجل الحصول على الكلأ والماء لرعي مواشيهم أو الهجرة شمالاً الى العراق والشام حيث مصادر الرزق الوفير. فلما نجح أبو بكر الصديق في توحيد العرب تحت سلطة مركزية واحدة، كان من الضروري أن يوجه طاقاتهم الى الجبهة الخارجية من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض وتحسين أوضاعهم المعاشية(١٠٨). يقول البلاذري: «لما فرغ أبو بكر (رض) من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام، فكتب الى أهل مكة، والطائف، واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه، وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع»(١٠٩).

وقد أورد الطبري خطاباً لخالد بن الوليد يحث الناس على الجهاد و «يرغبهم في بلاد العجم، ويزهدهم في بلاد العرب، وقال: ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عزّ وجل، ولم يكن الا المعاش لكان الرأي أن نقارع هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والاقلال من تولاه فمن أثقل عما أنتم عليه»(١١٠).

(١٠٨) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٤٥-٤٦، ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ص ١٦٥.

(١٠٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٥.

(١١٠) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٣٥٤.

أورد الطبري حواراً بين خالد بن الوليد وبين زعماء الحيرة يشير الى أن دوافع التحرير القومي كانت تتداخل وتتكامل في فكره مع دوافع نشر رسالة الاسلام القائمة على العدل والانصاف. قال خالد: «ويحكم! ما أنتم! عرب؟ فما تنقمون من العرب! أو عجم؟ فما تنقمون من الأنصاف والعدل! فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى مستعربة فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا، فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان الا بالعربية، فقال: صدقت. وقال: إختاروا واحدة من ثلاث: ان تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا أن نهضتم وهاجرتم وان أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة، فقال: بل نعطيك الجزية، فقال خالد: تبا لكم، ويحكم ان الكفر قلادة مفصلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه، وإستدل الأعجمي»(١١١)

لقد كان الهدف المركزي من حروب التحرير كما يفهم من الحوار الآنف الذكر هو نشر عقيدة الاسلام بين الناس، غير أن هذه الحروب لم تسع الى إكراه أحد على إعتناق الاسلام وإنما كانت تستهدف توفير الظروف الموضوعية التي تساعد الناس على الاختيار الحر بين إعتناق الاسلام وبين إداء الجزية والعيش في ظل عدالة الاسلام.

إن تحقيق الأهداف الآنفة الذكر كان يتطلب أن يحشد المسلمون من وسائل القوة المادية والمعنوية ما يكافيء قوة الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية ويتفوق عليها، فهل إستطاع المسلمون أن يحشدوا مثل هذه القوة قبل الشروع في حروب التحرير؟

إن النصوص التي بين أيدينا تشير الى أن تطور الاحداث لم يفسح المجال للتريث ريثما تتوافر مثل هذه القوة، وإنما شرع المسلمون في حربهم ضد الامبراطورية الساسانية، ومن بعدها الامبراطورية البيزنطية نتيجة ثقتهم العالية بأنفسهم التي نشأت عن وحدتهم الدينية والسياسية وشعورهم، ربما على نحو غامض بضعف خصومهم وتفككهم.

وقد كان أبو بكر الصديق حريصاً على أن تبدأ حروب التحرير على جبهة الشام تنفيذاً للسياسة التي بدأها الرسول ﷺ في «حياته»، غير أن سير المعارك في حروب الردة، وبخاصة في البحرين قد أدى الى الاحتكاك بالساسانيين في منطقة السواد في جنوب العراق وحفز المقاتلين المسلمين على إقناع الخليفة بفتح جبهة تحرير العراق(١١٢)

(١١١) الطبري نفسه، ج ٣، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(١١٢) طه حسين: الفتنة الكبرى، ص ٨٧ - ٨٨.

أ. بدء تحرير العراق :

كان بنو شيبان قد اكتشفوا مدى الضعف الذي تعاني منه الأمبراطورية الساسانية منذ ان انتصروا على قواتها في معركة ذي قار بحدود سنة ٦١٠ م. لذا فقد كانوا يغيرون على سواد العراق الذي كان خاضعا لسيطرتها دون خشية من بطشها وانتقامها. وكان من جملة زعماء بني شيبان الذي درج على الاغارة على السواد في رجال من قومه خلال حروب الردة المثنى بن حارثة الشيباني. فبلغ ابا بكر الصديق (رض) خبره، فسأل عنه، فقال له قيس ابن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد : هذا المثنى بن حارثة الشيباني، ثم ان المثنى قدم على ابي بكر فقال له يا خليفة رسول الله، استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس، فكتب له ابو بكر في ذلك عهدا، فسار حتى نزل خفان، ودعا قومه الى الاسلام فأسلموا[١١٣].

ان موافقة ابي بكر الصديق على قيام المثنى على بدء حروب تحرير العراق، ربما جاءت بعد أن اوضح المثنى مدى ضعف الفرس ومدى استعداد عرب منطقة الخليج العربي وجنوب العراق على التعاون معه في قتال الفرس. ومن المحتمل ان ابا بكر الصديق بعد ان اقتنع بوجهة نظر المثنى بن حارثة الشيباني، قد توجه لاستشارة من حوله من كبار الصحابة حول هذه المسألة فوجد لديهم القناعة والتشجيع[١١٤]. لذا فانه لم يترك أمر الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة الى المثنى وحده وانما كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه الى العراق لقيادة عمليات تحرير العراق بعد أن فرغ من القضاء على المرتدين في شبه الجزيرة العربية[١١٥].

ويبدو أنه كان ثمة صلة بين حروب الردة في البحرين وبدء حروب تحرير العراق، وذلك لأن بعض القبائل التي ارتدت عن الاسلام كانت تقيم في كل من البحرين وجنوب العراق وأن الفرس الساسانيين قد حاولوا تشجيع المرتدين وتوحيد صفوفهم تحت قيادة المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغرور[١١٦]. لذا فقد اضطر المقاتلون وعلى رأسهم

---

(١١٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٢٤٢.

(١١٤) طه حسين : الشيخان، ص ٨٨.

(١١٥) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٢٤٢.

(١١٦) الشيباني : بنو شيبان ودورهم في تاريخ العرب الاسلامي، بغداد ١٩٨٤، ص ١٦٦ - ١٧٠، كمال، احمد عادل : الطريق الى المدائن، بيروت ١٩٧٧، ص ٢٠٥.

المثنى بن حارثة الشيباني الى دخول العراق من أجل مطاردة المرتدين مما ولّد لديه شعورا بأن تحرير عرب العراق من تسلط الفرس خطوة مكملة لحروب الردة التي استهدفت توحيد العرب في اطار سيادة الاسلام وسلطته المركزية.

وهكذا فقد توجه خالد بن الوليد الى العراق في محرم سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م ، على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل. وقد انضم اليه في العراق ثمانية آلاف مقاتل ، فأصبح عدد أفراد الجيش الذي تولى تحرير العراق ثمانية عشر الف مقاتل[١١٧].

لقد كانت توجيهات الخليفة ابي بكر الصديق لخالد ان يبدأ عمليات تحرير العراق من منطقة الخليج العربي ويتوجه الى الابلة قرب موضع مدينة البصرة ، فكتب اليه : «ان سر الى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بفرج الهند ، وهي الابلة ، وتألف أهل فارس ، ومن كان في ملكهم من الأمم[١١٨].

وقد كتب خالد بن الوليد قبل توجهه لتحرير العراق رسالة الى هرمز ، حاكم الفرس لمنطقة الابلة ، ينذره فيها بالحرب ان لم يقبل الاسلام او يدفع الجزية حسب التقاليد العربية الاسلامية جاء فيها : «أما بعد ، فاسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، والاّ فلا تلومّن الاّ نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»[١١٩].

ولم يكن قبول هذا الانذار من قبل هرمز بالأمر الميسور ، وهو الذي كان ينظر الى العرب نظرة استخفاف ويسيء معاملة الخاضعين لحكمه منهم حتى ضربوا المثل في كفره وخبثه فقالوا : «أخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز»[١٢٠]. لذا فما كاد يتسلم هذا الانذار الذي يخيره بين الاسلام او الخضوع او الحرب . حتى حشد قواته واتجه الى كاظمة ، وهي محطة لاستراحة القوافل على طريق البصرة لمقاتلة خالد عندها ، وذلك لأن خالد بن الوليد كان قد توجه اليها وعسكرت قواته فيها[١٢١].

---

(١١٧) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٧.
(١١٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٣.
(١١٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨.
(١٢٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٨.
(١٢١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٨.

وقد دارت على أرض كاظمة أولى المعارك الكبرى بين العرب والفرس ، عرفت بمعركة ذات السلاسل ، وذلك لأن مقاتلة الفرس قد قيدوا أنفسهم بالسلاسل خوفا من الهرب اذا مالت الحرب لغير صالحهم ، وقد اعترض بعضهم على هذا العمل فقالوا : « قيدتم أنفسكم لعدوكم ، فلا تفعلوا ، فان هذا طائر سوء ، فأجابوهم وقالوا : أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب »(١٢٢).

لقد انتهت هذه المعركة بهزيمة قوات الفرس التي لم تذكر المصادر كم كان عددها ، وقتل قائدهم هرمز وتم الحصول على غنائم ثمينة . وقد قام خالد بتوزيع حصة المقاتلين من الغنيمة ثم أرسل ماتبقى الى الخليفة في المدينة فكان ذلك أول غنيمة من غنائم الفرس تصل اليها ، ويقال أنه كان بضمنها فيل فأثار منظره عجب الناس ، لأن الكثير منهم وبخاصة النساء لم يسبق لهم رؤية فيل(١٢٣) .

لقد ترتب على هذه المعركة ان تمكنت قوات المسلمين بالتقدم والحصول منها على الغنائم(١٢٤) . وقد توالت بعد ذلك المعارك بين جيش خالد والقوات الفارسية التي تحاول الثأر لهزيمتها ، الاّ ان نتائج المعارك كلّها كانت لغير صالحها . وكان من جملة تلك المعارك وقعة المذار ووقعة الولجة ووقعة أليس عند الفرات ، مما سّهل على المسلمين السيطرة على أمغيشيا ثم التقدم لأخضاع الحيرة(١٢٥) .

وقد حاول اهل الحيرة في البداية مقاومة جيش المسلمين ، الا انهم لم يلبثوا ان تراجعوا بعد ان رأوا قوة المسلمين فارسلوا وفدا منهم الى خالد لمفاوضته والصلح معه . وقد تم الصلح على ان يدخلوا في عهد المسلمين ويدفعوا الجزية ، وكان مقدارها مائة وتسعين الف درهم في السنة(١٢٦) .

وهكذا تواصلت عمليات تحرير العراق على يد خالد بن الوليد لمدة تقرب من السنة حتى كتب اليه الخليفة ابو بكر الصديق في صفر سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م ان يلتحق بقوات تحرير بلاد الشام مع جزء من قواته ، وان يسلم قيادة جند المسلمين في العراق الى المثنى بن

---

(١٢٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ .
(١٢٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ – ٣٥٠ .
(١٢٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ .
(١٢٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ – ٣٦٠ .
(١٢٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥٩ – ٣٦٢ .

حارثة الشيباني؛ وبذلك بدأت جبهة العراق تميلاً ريثما تتم العمليات العسكرية التي كانت قد وصلت مرحلة حاسمة على جبهة الشام.(١٢٧)

ب. بدء تحرير الشام:

يبدو ان اهتمام ابي بكر الصديق بتحرير الشام كان يتقدم على اهتمامه بتحرير العراق بدليل انفاذه حملة أسامة بن زيد فور توليه الخلافة. غير ان حروب الردة وتطور الاحداث على حدود العراق قد حملت ابا بكر الصديق على تأجيل الشروع بتحرير الشام ريثما يطمئن الى نتائج المعارك على جبهة العراق.

وكان ابو بكر الصديق قد ارسل خالد بن سعيد بن العاص على رأس جيش من المسلمين الى تيماء قرب حدود الشام ليكون ردءاً لمن وراءه من المسلمين في حالة تعرض الروم او حلفائهم لهم في اثناء حروب الردة وفي بدء تحرير العراق. غير ان خالد بن سعيد اندفع الى داخل بلاد الشام على امل تحقيق بعض الانتصارات على الروم، غير انه فشل في تحقيق هدفه، وانقلب الموقف الى هزيمة، مما دفع ابا بكر الصديق الى عزله والشروع بحشد قوة عسكرية كبيرة لمواجهة الروم في جبهة الشام(١٢٨).

لقد شكل ابو بكر الصديق في مطلع سنة ١٣ هـ/٦٣٤ م ثلاثة جيوش بقيادة كل من ابي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن ابي سفيان للتوجه الى بلاد الشام. كما شكل جيشاً رابعاً بقيادة شرحبيل بن حسنة ليكون مدداً لهم. وقد عهد الى كل قائد منهم بمهمة محددة، وطلب منهم التعاون والعمل تحت قيادة القائد الذي تقع المواجهة مع الروم ضمن منطقة عملياته(١٢٩). وقد ذكر البلاذري انه كان في البداية مع كل قائد من قادة الجيوش ثلاثة آلاف مقاتل «فلم يزل ابو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مع كل امير سبعة آلاف وخمسمائة، ثم تمام جمعهم بعد ذلك، اربعة وعشرين الفاً»(١٣٠)

وعند وصول هذه القوات جنوب بلاد الشام، وجدوا ان قوات العدو كثيرة وان استعدادها للقتال جيد، فكتب عمرو بن العاص الى الخليفة ابي بكر الصديق «يعلمه كثرة عدد العدو وعدتهم وسعة ارضهم وشدة مقاتلتهم، فكتب ابو بكر الى خالد بن

(١٢٧) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٩٣.
(١٢٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٨٧-٣٩١. لـ ـصيل: الشيخان، ص٩١-٩٢.
(١٢٩) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٨٧؛ ابن خياط: تاريخ، ص٨٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٦-١١٧.
(١٣٠) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٦.

الوليد ... وهو بالعراق ، يأمره بالمسير الى الشام ، فيقال : انه جعله اميراً على الامراء في الحرب ، وقال قوم : كان خالد اميراً على اصحابه الذين شخصوا معه ، وكان المسلمون اذا اجتمعوا لحرب أمّروه الامراء فيها لبأسه وكيده ورمن نقيبته »[١٣١]

لقد توجه خالد من العراق قاصداً بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٣ هـ على رأس جيش مؤلف من عدد من المقاتلين يتراوح بين الخمسمائة والثمانمائة . وفي الطريق اخضع عدداً من المناطق والقرى لسلطان المسلمين حتى وصل الى بلاد الشام[١٣٢] .

وقد تولى خالد بن الوليد قيادة الجيوش الاسلامية في بلاد الشام قبل وقوع معركة اجنادين . وكانت الجيوش الاسلامية قد خاضت بعض المعارك الصغيرة ضد الروم قبل هذه المعركة مثل معركة عربة وبصرى والتي انتهت بانتصار جيوش المسلمين ، مما جعل الروم على الاستعداد وحشد قوات كبيرة لخوض معركة حاسمة ضد الجيوش الاسلامية عند اجنادين ، وهي بلدة قرب الرملة من اعمال فلسطين[١٣٣] .

وعند اجنادين دارت معركة كبيرة بين قوات المسلمين التي بلغ تعداد مقاتليها اكثر من سبعة وعشرين الف رجل[١٣٤] بقيادة خالد بن الوليد وقوات الروم التي كان عدد مقاتليها حسبما يذكر البلاذري زهاء مائة الف[١٣٥] ، وقد قاتل المسلمون في هذه المعركة « قتالاً شديداً ، وابلى خالد بن الوليد يومئذ بلاءاً حسناً[١٣٦] » ، حتى تم لهم النصر المبين على اعدائهم وتكبيدهم خسائر جسيمة . وبذلك تعززت ثقة المسلمين بأنفسهم ، واخذوا يستعدون للتوجه شمالاً من اجل تصفية الوجود البيزنطي في بلاد الشام .

لقد تحقق هذا الانتصار الكبير للمسلمين على الروم في اواخر شهر جمادي الاولى سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م لليلتين او ثلاث ليال بقين منه[١٣٧] . وكان حرياً بأنباء هذا الانتصار ان تدخل الفرحة والسرور الى قلب الخليفة ابي بكر الصديق الذي اخذ يعاني من آلام المرض الذي انتهى بوفاته في شهر « جمادي الآخرة ، يوم الاثنين لثمان بقين منه »[١٣٨] .

---

(١٣١) المصدر نفسه ، ص١١٧ .
(١٣٢) المصدر نفسه ، ص١١٨-١١٩
(١٣٣) المصدر نفسه ، ص١١٧-١٢٠ : الطبري : تاريخ ، ج٣ ، ص ٤١٧ .
(١٣٤) الطبري : تاريخ ، ج٣ ، ص٣٩٢ .
(١٣٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٢٠ .
(١٣٦) المصدر نفسه ، ص١٢٠ .
(١٣٧) خليفة : تاريخ ، ج١ ، ص٨٧ : الطبري : تاريخ ، ج٣ ، ص٤١٨ .
(١٣٨) الطبري : تاريخ ، ج٣ ، ص٤١٩ .

ويلاحظ انه على الرغم من ان المدة التي انقضت بين الانتصار في معركة اجنادين ووفاة ابي بكر الصديق. وهي حوالي خمسة وعشرين يوماً، كانت كافية لوصول اخبار هذا الانتصار الى المدينة، الا ان مابين ايدينا من نصوص يوحي بأن ابا بكر الصديق قد توفي وهو غير مطلع على نتيجة معركة اجنادين. لذا فقد كانت آخر وصية له الى عمر بن الخطاب حينما جاءه المثنى بن حارثة الشيباني، يشكو اليه حراجة الموقف على جبهة العراق، قوله: «وان فتح الله على امراء الشام. فأردد اصحاب خالد الى العراق، فانهم اهله وولاة امره..»(١٣٩).

رابعاً: نهاية عهد ابي بكر (رض) وترشيح عمر بن الخطاب للخلافة:

توفي ابو بكر الصديق في ٢٢ من شهر جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ / ٢٣ آب ٦٣٤ م، عن عمر ناهز ثلاثة وستين عاماً، قضى منها في الخلافة حوالي سنتين واربعة اشهر(١٤٠).

وقد ذكر ان سبب مرض ابي بكر الصديق ووفاته انه كان قد اغتسل في يوم بارد فأصابته الحمى لمدة خمسة عشر يوماً، «فكان لا يخرج الى الصلاة، وكان يأمر عمر ابن الخطاب ان يصلي بالناس، ويدخل الناس يعودونه، وهو يثقل كل يوم»(١٤١) حتى توفي.

لقد كانت خلافة ابي بكر الصديق على الرغم من قصر مدتها ذات اثر عظيم على مستقبل الامة العربية والمسلمين كافة، لانه استطاع في خلالها ان يحافظ على وحدة الامة والدولة في مواجهة حركات الانشقاق والردة، وان يبدأ حروب التحرير التي ادت الى امتداد دولة الاسلام وانتشار دعوته حتى اصبح المسلمون في خلال قرن من الزمن اعظم قوة في العالم.

وقد حرص ابو بكر الصديق ان يجعل من الخلافة، قيادة سياسية جديرة بخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا كما يقول الفقهاء، ولم يغادر الدنيا الا وكان قد أعد ورشح من يشغل هذا المنصب من بين أكفأ صحابة الرسول ﷺ كي لايجد المسلمون انفسهم

---

(١٣٩) المصدر نفسه، ج٣، ص٤١٠.
(١٤٠) المصدر نفسه، ج٣، ص٤١٠ - ٤١١؛ ابن خياط للتاريخ، ج١، ص٨١-٩٠.
(١٤١) الطبري: تاريخ، ج٣: ص٤٠٩.

في وضع يدعو للاختلاف في وقت كانوا فيه بحاجة ماسة الى التماسك والوحدة بعد ان خرجوا بين حروب الردة واتجهت جيوشهم الى حروب التحرير(١٤٢).

كان عمر بن الخطاب اقرب الصحابة الى ابي بكر الصديق وهو يضطلع بواجبات الخلافة، فجعل يستشيره في شتى الامور، ويعهد اليه بالعديد من الواجبات فكان كما ذكر خليفة بن خياط «على امره كله»(١٤٣)، اوكان بمثابة نائب الخليفة اووكيله حسب المصطلحات المعاصرة.

وقد كان ابو بكر الصديق يدرك ان تولي عمر بن الخطاب للخلافة من بعده يشكل خير ضمان لاستمرار السياسة التي بدأها في مجال السياسة الداخلية والخارجية، لذا فقد سعى الى توفير الظروف التي تساعد على توليه الخلافة من بعده.

ويبدو ان ابا بكر الصديق قد قام بمراعاة التقاليد العربية القديمة والقيم الاسلامية الجديدة وهو يسعى لترشيح عمر بن الخطاب لمنصب الخلافة. فقد كانت التقاليد العربية تقضي بأنه «عندما تكون وضعية فرد على درجة من الرفعة تعينه ليكون الخلف النهائي لرئيس القبيلة الراحل، فانه من الثابت ان رجلاً كهذا، قد يحل محل الرئيس المتوفى من غير حاجة الى مراسيم، وعلى بقية القبيلة ان تعبر عن موافقتها بتقديم يمين الولاء له»(١٤٤). وقد كان واضحاً ان اغلبية افراد الامة كانوا على استعداد عند وفاة ابي بكر الصديق لمبايعة عمر بن الخطاب بالخلافة وذلك لمكانته الكبيرة في المجتمع الاسلامي. غير ان ابا بكر الصديق لم يشأ ان يعتمد على هذه القاعدة وحدها في ترشيح عمر للخلافة، بل لجأ الى المبدأ الاسلامي الاساس في الحكم وهو «الشورى» فأخذ يستشير كبار صحابة رسول الله ﷺ بهذا الشأن، فاستشار عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد من المهاجرين. وأسيد بن الحضير من الانصار، وغيرهم، فكان رأيهم جميعاً فيه مثل رأي ابي بكر الصديق في انه ليس بين المسلمين اصلح منه لهذا الامر وان سريته خير من علانيته(١٤٥). ومع ذلك فقد كان هنالك من يتخوف من تولية عمر بن الخطاب الخلافة لما كان يتصف به من غلظة في التعامل. غير ان ابا بكر قد أوضح لهؤلاء المتخوفين عدم اهمية هذه الناحية لانها قد تكون ضرورية في بعض الحالات لمن

---

(١٤٢) ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص٢٠٠.

(١٤٣) ابن خياط: تاريخ، ج١، ص٩١.

(١٤٤) آرنولد، توماس: الخلافة، ترجمة: حسين مطلس، دار اليقظة العربية ١٩٤٦، ص٨.

(١٤٥) ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص١٩٩.

يمارس الحكم والسلطة (١٤٦) لقد ذكر ابو بكر الصديق ان عمر بن الخطاب كان يتصرف بغلظة لانه كان يراه رقيقاً ولو افضى اليه الامر لترك كثيراً مما هو عليه» (١٤٧).

وهكذا فقد استقر رأي ابي بكر الصديق على ترشيح عمر بن الخطاب للخلافة، وقد اعلن ذلك على الناس قبل وفاته فرحب الناس بهذا الترشيح، وهو ماعرف في كتب التاريخ والفقه بالعهد اوالاستخلاف (١٤٨). ويبدو ان بعض الفقهاء قد إستنتج من ذلك جواز تولية الخليفة عن طريق العهد اليه او استخلافه من قبل الخليفة السابق وبذلك يتم تداول منصب الخلافة عن طريق التعيين والوراثة. يقول الماوردي، «واما انعقاد الامامة بعهد من قبله، فهو مما انعقد الاجماع على جوازه ووقع الاتفاق على صحته لامرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروها احدهما ان ابا بكر (رضي الله عنه) عهد بها الى عمر (رضي الله عنه) فأثبت المسلمون امامته بعده...» (١٤٩).

والحقيقة ان فهم الماوردي وغيره من الفقهاء لمسألة استخلاف عمر بن الخطاب كان بعيداً عن روحية تلك الفترة، وهو متأثر بما كان قائماً في عصرهم بشأن العهد للخلفاء. ان مافعله ابو بكر الصديق لم يكن يتجاوز مجرد الترشيح لمنصب الخلافة، ولو ان افراد الامة لم يتقبلوا هذا الترشيح بالترحيب والموافقة لم يترتب عليه اي اثر. لذا فقد ذكر ابن تيمية ان الامامة «ملك وسلطان، والملك لايصير ملكاً بموافقة واحد ولا اثنين ولا اربعة، الاّ ان تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكاً بذلك» (١٥٠)... ثم انه «متى صار اماماً فذلك بمبايعة اهل القدرة له. وكذلك عمر لما عهد اليه ابو بكر، انما صار اماماً لما بايعوه وأطاعوه، ولو قدر انهم لم ينفذوا عهد ابي بكر ولم يبايعوه لم يصر اماماً» (١٥١).

لقد أشارت المصادر الى ان المسلمين قد وافقوا على ترشيح ابي بكر الصديق (رض) لعمر بن الخطاب للخلافة (١٥٢)، ثم اقبلوا على مبايعته بعد وفاته ولمدة ثلاثة ايام (١٥٣). ولم يظهر مايوحي بوجود اي معترض على خلافته، او ممتنع عن بيعته، مما يدل على اجماع الامة على قبول تولي عمر بن الخطاب (رض) للخلافة. وبذلك اصبح ثاني الخلفاء الراشدين، وأمير المؤمنين كما سيعرف بعد ذلك.

(١٤٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩٩-٢٠٠؛ الطبري؛ تاريخ، ج٣، ص٤٢٨.

(١٤٧) الطبري: تاريخ، ج٣، ص٤٢٨.

(١٤٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٢٨-٤٢٩؛ ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص١٩٩-٢٠٠.

(١٤٩) الماوردي: الأحكام السلطانية: مصر ١٩٦٠، ص١٠؛

(١٥٠) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية: القاهرة ١٩٦٢، ج١، ص١٣٦.

(١٥١) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٧.

(١٥٢) الطبري: تاريخ، ج٣، ص٤٢٧-٤٣٠.

(١٥٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٣٠.

الفصل الثاني

الخلافة الراشدة
في عهد عمر بن الخطاب (رض)

أولا : توليه الخلافة

تولى عمر بن الخطاب الخلافة في نفس اليوم الذي توفي فيه ابو بكر الصديق . وكان ذلك في ٢٢ من شهر جمادي الآخرة ، سنة ١٣ هـ / ٢٣ آب ٦٣٤ م .

وقد أشير الى ان الخليفة عمر بن الخطاب قد قام في الناس خطيبا بعد الفراغ من دفن ابي بكر الصديق ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي ، وخلفت فيكم بعد صاحبي ، فمن كان يحضرنا بانشرناه بأنفسنا ، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة ، فمن يحسن نزده حسنا ، ومن يسيء نعاقبه ، ويغفر الله لنا ولكم »[1] :

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

وبذلك يكون الخليفة عمر بن الخطاب قد حدد المعالم الأساس لمنهجه في الحكم بكلمات قليلة وحاسمة ، وهي تنطوي على المبادئ الآتية :

١. ان مسؤولية الحكم في الدولة « الخلافة » هي ابتلاء واختيار للحاكم والمحكومين ، فعلى الحاكم ان يقوم بواجباته بقوة وأمانة ، وعلى المحكومين ان يؤدوا ما عليهم من واجبات « فمن يحسن نزده حسناً ، ومن يسيء نعاقبه » .

٢. إن خلافة عمر بن الخطاب هي إمتداد لعهد الرسول ﷺ في الحكم وعهد خليفته أبي بكر الصديق ، ومن ثم فهو ملتزم بالأسس والمبادئ التي قام عليها الحكم في عهديهما .

٣. يتحمل الخليفة مسؤولية حكم وإدارة من يعيشون في حضرته من الناس بصورة مباشرة ، أما الذين يعيشون بعيداً عنه في المدن والأمصار فإنه مسؤول عن تعيين ولاة قادرين على إدارة شؤونهم بنفس الطريقة من أهل القوة والأمانة .

٤. إن الخليفة ليس معصوماً من الخطأ والزلل شأنه شأن بقية الناس لذا فإنه يرجو من الله أن يغفر له ولهم ما قد يقترفونه من ذنوب وأخطاء .

ثانياً : أعمال الخليفة عمر بن الخطاب (رض) :

لم يكن أمام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعد توليه الخلافة من وقت للمراجعة والتأمل الطويل ، إذ كانت جيوش المسلمين مشتبكة في معارك مع الروم على جبهة الشام ، وكان المثنى بن حارثة قد جاء الى المدينة لطلب النجدة لمعالجة الموقف على جبهة العراق بعد أن تنبه الفرس الى خطورة الموقف ، وأخذوا يحشدون قواتهم لمقاتلة المسلمين فيه ، لذا فقد بدأ الخليفة عمر بن الخطاب بحشد كل طاقاته لمعالجة الموقف العسكري وتوجيهه على النحو الآتي :

١ – حروب التحرير على جبهة العراق :

كان أول عمل باشره عمر بن الخطاب (رض) بعد مبايعته بالخلافة ان دعا الناس الى الانضمام الى جيش المسلمين لمقاتلة الفرس في العراق ، غير أن الناس تثاقلوا عن تلبية الدعوة ، وذلك لأن وجه فارس كان « من أكره الوجوه اليهم » ، وأثقلها عليهم لشدة

سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم»[٢]. غير أن المثنى بن حارثة شجع الناس على الالتحاق بهذا الجيش وعمل على تبديد المخاوف من نفوسهم بقوله: «أيها الناس، لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فأنا قد تبجحنا زيف فارس، وغلبناهم على خير شقي السواد، وشاطرناهم، ونلنا منهم واجتراً من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها»[٣]. كما تولى الخليفة عمر بن الخطاب حث الناس على الجهاد والمشاركة في هذه الحملة[٤].

وقد سارع في اليوم الرابع من تاريخ الاعلان عن تجهيز هذه الحملة أبو عبيد بن مسعود الثقفي الى التطوع فيها وتبعه آخرون حتى بلغ عدد جنده ألف مقاتل. وقد جعل الخليفة قيادة هذا الجيش الى ابي عبيد الثقفي على الرغم من أنه لم يكن من السابقين من المهاجرين والأنصار، وذلك لأنه بادر الى التطوع للجهاد قبل غيره[٥]، غير انه أوصاه باستشارة من معه من الصحابة وبالتزام بعض القواعد الأساسية في القتال بقوله: «اسمع من اصحاب النبي (ﷺ): وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين، فانها الحرب، والحرب لايصلحها الاّ الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف»[٦].

لقد توجه ابو عبيد الثقفي على رأس جيشه الى العراق بعد أن أصبحت له قيادة جبهة العراق وأصبح المثنى بن حارثة أحد القادة التابعين له. فكأن «لايمر بقوم من العرب الاّ رغّبهم في الجهاد والغنيمة فصحبه خلق»[٧].

وقد استطاع جيش ابي عبيد ان يحقق بعض الانتصارات على الفرس اثر وصوله العراق في معركة النمارق، ومعركة السقاطية، مما أقلق الفرس وجعلهم يحشدون قوة كبيرة للاقاة جيش المسلمين عند موضع يدعى المروحة حيث وقعت عنده احدى المعارك المهمة التي عرفت بمعركة الجسر[٨].

لقد أشارت المصادر الى أن قوات الفرس كانت تقف على الجانب الشرقي من نهر الفرات، بينما كانت قوات المسلمين تقف على الجانب الغربي منه، ولأن حماس المسلمين كان قويا لخوض المعركة، فانهم قد قاموا باستخدام جسر لعبور النهر حيث دارت معركة

(٢) الطبري: تأريخ، ج ٣، ص ٤٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤٥.
(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤٥.
(٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٥١.
(٦) الطبري: تأريخ، ج ٣، ص ٤٤٥.
(٧) البلاذري: فتوح، ص ٢٥١.
(٨) الطبري: تأريخ، ج ٣، ص ٤٤٦ – ٤٥٤.

حامية عند موضع القوات الفارسية ، مما منح الفرس بعض المزايا في القتال . وقد ذكر انه كان مع القوات الفارسية التي بلغ تعدادها أربعة آلاف رجل مدججين بأسلحة جيدة ، فيل أو عدة فيلة ، مما أدى الى ارباك المقاتلين المسلمين لأنهم لم يعتادوا على رؤية هذه الحيوانات ومقاتلتها في الحروب . لذا فقد تكبدوا خسائر كبيرة ، وحينما حاول قائدهم ابو عبيد الثقفي التصدي لأحد الفيلة وقتله ، اصيب ، وسقط شهيدا في المعركة[٩] . وحين أراد المسلمون الأنسحاب من المعركة ، والعودة الى الجانب الثاني من النهر ، فوجئوا بأن أحد المسلمين كان قد بادر الى قطع الجسر لتشجيعهم على الصمود وعدم الهرب ، مما تسبب في الحاق أضرار جسيمة بهم وخسارتهم لنتيجة المعركة[١٠] . وكان ذلك في رمضان ، سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م ، وقد تولى قيادة جبهة العراق بعد استشهاد ابي عبيد ، المثنى بن حارثة الشيباني ، حيث انحاز بالمسلمين الى ناحية أليس ، وأخذ يدعو العرب الى الجهاد[١١] .

لقد أحزنت هزيمة المسلمين في هذه المعركة الخليفة عمر بن الخطاب كثيرا ، حتى انه مكث سنة لايذكر العراق لمصاب المسلمين فيه ؛ ويبدو أن ماجرى قد جعل عمر بن الخطاب يوقن بأنه بصدد مواجهة مصيرية حاسمة . لذا فانه «ندب الناس الى العراق ، فجعلوا يتحامونه ويثاقلون عنه حتى هم أن يغزو بنفسه ، وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم الى العراق ، ورغبهم في غنائم آل كسرى ، فردوا الاختيار اليه ، فأمرهم بالشخوص ، وقدم جرير بن عبد الله من السراة في بجيلة فسأل ان يأتي العراق على ان يعطي وقومه ربع ماغلبوا عليه فأجابه عمر الى ذلك ، فسار نحو العراق»[١٢] .

ويبدو أن خطورة الموقف العسكري قد حملت عمر بن الخطاب (رض) على تجاوز القاعدة التي وضعها ابو بكر الصديق في عدم الاستعانة بالقبائل التي ارتدت عن الاسلام في حروب التحرير ، فكتب الى أهل الردة يدعوهم للمشاركة في القتال ، فلم يوافه أحد منهم الا أرسله الى جبهة العراق لنجدة المثنى بن حارثة[١٣] . وبذلك استطاع عمر ان يحشد طاقات الأمة جميعها في ميدان الجهاد وبخاصة أن جميع المرتدين كانوا قد عادوا الى حظيرة الاسلام ، وأصبحوا يتطلعون الى مشاركة اخوانهم في حروب التحرير .

---

(٩) البلاذري : فتوح ، ص ٢٥١ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .
(١٠) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٥٥ .
(١١) البلاذري : فتوح ، ص ٢٥٠ - ٢٥٤ .
(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ .
(١٣) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .

وهكذا أخذت جبهة العراق تستعيد قوتها وحيويتها بكثرة من وفد اليها من المقاتلين ، مما مكّن المثنى بن حارثة من حشد طاقات المقاتلين استعداد لمواجهة الفرس عند موضع على الفرات مما يلي الكوفة ، يدعى البويب . وكان نهر الفرات يفصل بين قوات الطرفين ، لذا فقد كاتب مهران قائد الفرس المثنى بن حارثة : «اما ان تعبروا الينا وأما ان نعبر اليكم ، فقال المثنى : اعبروا ، فعبر مهران ، فنزل على شاطئ الفرات معهم في الملطاط»[١٤] ، «فاجتمع العسكران على شاطئ البويب الشرقي»[١٥] .

وقد دارت على أرض هذا الموضع معركة عنيفة استبسل فيها المسلمون وقاتلوا قتال الأبطال من اجل الثأر لهزيمة المسلمين في معركة الجسر ، وتأكيدا لوجودهم الذي أضبح في خطر . ويلاحظ ان الشعور القومي قد برز في هذه المعركة بصورة واضحة ، اذ ساهم نصارى تغلب الى جانب المسلمين في المعركة حين رأوا نزول العرب بالعجم ، فقالوا : «نقاتل مع قومنا»[١٦] . كما عهد المثنى بن حارثة الى الاستعانة بأنس بن هلال ، فقال : «يا أنس ، انك أمرؤ عربيّ ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي»[١٧] .

لقد انتهت هذه المعركة بانتصار المسلمين انتصارا حاسما ، وقتل فيها مهران قائد الفرس ، وكان الذي قتله غلام نصراني من تغلب[١٨] . كما ان الفرس فقدوا فيها من القتلى اعدادا كبيرة ، حتى ان جثثهم شكلت «تلولا تلوح من هامهم واوصالهم» كما يروى الطبري[١٩] . وبذلك عادت موازين القتال لتؤشر ان المستقبل قد غدا لصالح المسلمين ، وان عليهم ان يواصلوا الضغط على الفرس من اجل حسم المعارك على جبهة العراق بصورة نهائية لصالح المسلمين .

ومن ثم ، فقد اخذ «المسلمون يشنون الغارات ويتابعونها فيما بين الحيرة وكسكر ، وفيما بين كسكر وسورا ... ومابين الفلوجتين والنهرين وعين التمر ... وكانوا يعيشون مما ينالون من الغارات ...»[٢٠] ، حتى وقعت معركة القادسية . وقد استمرت هذه الحالة مدة ثمانية عشر شهرا حسبما يذكر البلاذري[٢١] .

(١٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦١ .
(١٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ٤٦٣ .
(١٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ٤٦٤ .
(١٧) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ٤٦٦ .
(١٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ .
(١٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ .
(٢٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ .
(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ .

لاتتفق المصادر على تحديد التاريخ الذي وقعت فيه معركة القادسية على الرغم من انها كانت اكبر واخطر المعارك التي وقعت بين العرب والفرس ، ففي حين يذهب الطبري الى انها وقعت سنة ١٤ هـ (٢٢) ، يرى خليفة بن خياط انها قد حصلت في سنة ١٥ هـ (٢٣) ، بينما يشير البلاذري الى ان يوم القادسية كان في آخر سنة ١٦ هـ (٢٤) . وربما كان من الارجح انها وقعت سنة ١٥هـ بعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك حيث مكنهم ذلك الانتصار من التفرغ لهذه المعركة وارسال الامدادات لها من جبهة الشام.

وتشير المصادر الى ان الفرس كانوا قد حشدوا اعدادا كبيرة من المقاتلين لمحاربة المسلمين بعد ان استقر الحكم في الامبراطورية الساسانية ليزدجرد ، حتى ان رواية البلاذري اوصلت اعدادهم الى زهاء مائة وعشرين الف مقاتل مجهزين بأحسن الاسلحة ومعهم الخيل والفيلة وغير ذلك (٢٥) ، في حين تشير روايات خليفة بن خياط الى ان عددهم كان يتراوح مابين اربعين الفا وستين الفا (٢٦) .

لقد قام الخليفة عمر بن الخطاب بمواجهة استعدادات الفرس بأن حشد في مواجهتهم قوة عسكرية ، ذكرت بعض المصادر أنها كانت تتراوح بين ستة الآف الى عشرة الآف (٢٧) ، وهو عدد يقل كثيرا عن عدد مقاتلي الفرس. ويبدو ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يعول كثيرا على شجاعة المقاتلين المسلمين وارتفاع معنوياتهم بفضل عقيدة الاسلام التي حببت اليهم الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

وقد عيّن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، سعد بن ابي وقاص قائدا جديدا على جبهة العراق بدلا عن المثنى بن حارثة ، ربما لأنه كان مريضا ، وقد توفي قبل ان تبدأ معركة القادسية (٢٨) .

لقد وقعت هذه المعركة عند موضع قريب من الحيرة على حافة الصحراء على الضفة الغربية من نهر الفرات يدعى القادسية ، ومنه اخذت معركة القادسية اسمها (٢٩) . وتجمع

(٢٢) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٩٠ .
(٢٣) ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٠١ .
(٢٤) البلاذري : فتوح ، ص ٢٥٦ .
(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ .
(٢٦) ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٠١ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠١ ، البلاذري : فتوح ، ص ٢٥٦ .
(٢٨) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .
(٢٩) الانباري : تاريخ الدول العربية ، ص ٨٧ .

المصادر على أن هذه المعركة كانت من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهة الفرس ، وقد استمرت أربعة ايام ، تواصل القتال في بعضها ليلا ونهارا . وقد انتهت بانتصار المسلمين نصرا حاسما على الفرس [٣٠] ، مما أجبر القوات المنهزمة على الانسحاب الى المدائن « طيسفون » التي كانت عاصمة الساسانيين للتحصن بها .

ولم يفوت المسلمون هذه الفرصة ، فتابعوا القوات المنهزمة الى المدائن وما زالوا يضيقون عليها الحصار حتى أرغموها على الاستسلام [٣١] ، وفر منها يزد جرد ملك فارس الى حلوان « معه أثاوره وحمل معه بيت ماله وخف متاعه ، وخزانته والنساء والذرارى ، وكانت السنة التي هرب فيها سنة مجاعة وطاعون عم أهل فارس » [٣٢] .

لقد كان حريا بيزد جرد أن يعمل على وقف القتال بعد ان هزم جيشه في اكثر من معركة ، وفقد عاصمة ملكه ، الا ان العناد غلبه فاستمر بتجهيز الحملات العسكرية المتوالية لمقاومة المسلمين ، مما أدى الى هزيمة جيشه مرة أخرى عند جلولاء [٣٣] ، وبذلك « لم يبق من سواد دجلة ناحية الا غلب عليها المسلمون وصارت في أيديهم » [٣٤] .

وهكذا فقد انتهت هذه المعارك بتحرير العراق من تسلط الفرس الساسانيين وانسحب يزد جرد وقواته الى داخل الهضبة الايرانية . ويبدو ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان يتمنى لو توقفت الحرب مع الفرس عند هذا الحد ، غير أن الفرس أصروا على مواصلة القتال ، مما اضطر المسلمين الى خوض المعارك داخل الهضبة الايرانية وبذلك تم فتح بلاد فارس والقضاء النهائي على الامبراطورية الساسانية خلال خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، حيث أصبحت جميع أقاليم الأمبراطورية الساسانية جزءا من أقاليم الدولة العربية الاسلامية [٣٥] .

ان مما يجدر ذكره في هذا السياق ، ان مدينة الموصل وتكريت وبقية بلدان الجزيرة كانت واقعة في هذه الفترة تحت حكم الروم البيزنطيين ، ومن ثم فقد كان من المفترض ان

---

(٣٠) الطبري : تأريخ ، ج ٣ ، ص ٥٢٩ – ٥٧٠ ؛ البلاذري : فتوح ، ص ٢٥٨ – ٢٦٠ .
(٣١) ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٠٣ – ١٠٤ ؛ البلاذري : فتوح ، ص ٢٦٣ .
(٣٢) البلاذري : فتوح ، ص ٢٦٢ .
(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ ؛ ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٠٧ .
(٣٤) البلاذري : فتوح ، ص ٢١٤ .
(٣٥) عبد حسين : الشيخان ، ص ١٥٦ – ١٥٧ ؛ ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٦ .

تقع مسئولية تحريرها على عاتق جيوش تحرير الشام التي كانت تخوض قتالا ضاريا ضد قوات الروم.

غير أن انتصار قوات المسلمين في العراق في القادسية والمدائن، قد أدخل الرعب في نفوس البيزنطيين في الموصل والجزيرة وجعلهم يحركون قواتهم الى تكريت استعدادا لمواجهة قوات تحرير العراق في موقع متقدم. فلما بلغت هذه الأخبار الى سعد بن أبي وقاص كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بأن «الأنطاق» قائد جند الروم البيزنطيين في الموصل قد توجه بقواته الى تكريت ونزل في حصنها وخندق فيه ليحمي أرضها. فكتب الخليفة عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص بأن يرسل جيشا لتحرير تكريت من الروم البيزنطيين بقيادة عبد الله بن المعتم، وأن يجعل على مقدمته ربعي بن الأفكل العنزي[٣٦].

وقد تألف الجيش الذي قاده عبد الله بن المعتم لمحاربة الروم في تكريت من خمسة آلاف مقاتل، واستغرق وصولهم من المدائن الى تكريت أربعة أيام. ويقدم لنا الطبرى وصفا مفصلا عن حصار قوات المسلمين لقوات الروم في تكريت الذي استغرق أربعين يوما دارت خلاله أربع وعشرون مواجهة لم تنته بانتصار أحد الطرفين. وأخيرا جاء دور العامل الذي حسم المعركة لصالح العرب المسلمين، حين تحركت المشاعر القومية لدى ابناء القبائل العربية التي كانت متحالفة مع الروم، فجاؤوا الى عبد الله بن المعتم يعرضون عليه الانسحاب من جيش الروم والإنضمام الى جيش المسلمين. يقول الطبري، ان عبد الله بن المعتم أرسل الى العرب «ليدعوهم اليه والى نصرته على الروم فهم لايخفون عليه شيئا، ولما رأت الروم أنهم لا يخرجون خرجة الا كانت عليهم، وينهزمون في كل مازاحفوهم، تركوا أمراءهم، ونقلوا متاعهم الى السفن، وأقبلت العيون من تغلب وإياد والنمر الى عبد الله بن المعتم بالخبر، وسألوه للعرب السلم، وأخبروه أنهم قد استجابوا له، فأرسل اليهم: ان كنتم صادقين بذلك فاشهدوا ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله، وأقروا بما جاء به من عند الله، ثم اعلمونا رأيكم، فرجعوا اليهم بذلك، فردوهم اليه بالاسلام، فردهم اليهم، وقال: اذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا الى الأبواب التي تليها لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التي تلي دجلة، وكبّروا واقتلوا من قدرتم عليه...»[٣٧] وبذلك تمكنت قوات المسلمين من دحر الروم البيزنطيين في تكريت وتحقيق النصر لها على اعدائهم.

(٣٦) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٣٥-٣٦.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٦.

لقد فتح هذا النصر الطريق امام المسلمين لتحرير الموصل من حكم الروم البيزنطيين. وكان هذا الهدف واضحا ومرسوما منذ البداية، فقد عهد عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص «ان هم هزموا – أي الروم – أن يأمر عبد الله بن المعتم بتسريح ابن الأفكل العنزي الى الحصنين»[٣٨]، أي الموصل بحصنيها الغربي – الموصل القديمة –، والشرقي اي نينوى، حيث يقع جامع النبي يونس في الوقت الحاضر.

ان خطة تحرير الموصل كانت تعتمد عنصر المباغتة من أجل عدم اتاحة الفرصة امام الروم البيزنطيين وحلفائهم من أجل الاستعداد للحرب وتنظيم المقاومة، وبذلك يتسنى للمسلمين تحقيق الأنتصار من غير قتال او تضحيات في الأرواح وقد أخذت الخطة موقف القبائل العربية المتعاونة مع المسلمين بعين الاعتبار اذ كان مقدرا لأبناء هذه القبائل ان يلعبوا دورا حاسما في تمكين المسلمين من دخول الموصل من دون قتال لأنهم كانوا موضع ثقة الروم وأعوانهم في المدينة بحكم عدم معرفتهم بتغير ولائهم واعتناقهم الاسلام.

وهكذا فقد وصلت رسل من تغلب واياد والنمر الى الموصل قبل وصول قوات المسلمين وأخذت تبشر الناس بانتصار الروم على المسلمين من باب الخدعة، وبذلك فتحت ابواب المدينة، وترك الروم الاستعداد للقتال حتى فاجأتهم قوات المسلمين بقيادة ربعي بن الأفكل، فدخلت المدينة من دون مقاومة تذكر، وتم تحرير الموصل صلحا لا عنوة. يقول الطبري في وصف ذلك، فنادى المسلمون الناس «بالأجابة الى الصلح، فأقام من استجاب، وهرب من لم يستجب، الى أن أتاهم عبد الله بن المعتم، فلما نزل عليهم عبد الله دعا من لج وذهب، ووفى لمن أقام، فتراجع الهراب، واغتبط المقيم، وصارت لهم جميعا الذمة والمنعة»[٣٩].

ان ماتقدم، يشير الى انه تم تحرير تكريت والموصل سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧ م من قبل قوات تحرير العراق من التسلط الفارسي في اطار عملية استثنائية قامت بها ردا على تحرك قوات الروم البيزنطيين. ومن ثم، فلم يكن من ضمن مهمات هذه القوات ان تتوسع في تحرير المناطق المحيطة بالموصل والجزيرة لأن ذلك ضمن واجبات القوات التي كانت تحارب الروم البيزنطيين في جبهة الشام. لذا فقد وصلتنا روايات تشير الى قيام قوات هذه الجبهة بارسال قوات لتحرير منطقة الموصل والجزيرة بقيادة عياض بن غنم في سنة ١٨ هـ/ أو ٢٠ هـ/ ٦٣٩ م او ٦٤٠ م. فقد ذكر خليفة بن خياط ان عمر بن الخطاب (رض): «وجه

(٣٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٦.
(٣٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧.

عياضا فافتتح الموصل وخلف عتبة بن فرقد على أجل الحصنين، وافتتح الأرض كلها عنوة غير الحصن، فصالحه أهلها وذلك سنة ثمان عشرة»(٤٠).

كما أورد البلاذري ان عمر بن الخطاب (رض) ولى «عتبة بن فرقد الموصل سنة عشرين، فقاتله أهل نينوى، فأخذ حصنها، وهو الشرقي، عنوة، وعبر دجلة فصالحه أهل الحصن الآخر على الجزية والأذن لمن أراد الجلاء في الجلاء، ووجد بالموصل ديارات فصالحه أهلها على الجزية، ثم فتح المرج وقراه وأرض باهذرى وياعذرى وحبتون والحيانة والمعلة وداسير وجميع معاقل الأكراد، وأتى يانعاثا من حزة ففتحها، وأتى تل الشهارجة والسلق الذي يعرف ببني الحر بن صالح بن عبادة الهمداني صاحب رابطة الموصل ففتح ذلك كله وغلب عليه»(٤١).

ان النصوص الآنفة الذكر تشير الى ان جند الشام الذين كان يقودهم عياض بن غنم قد قاموا بتحرير العديد من المناطق والقرى المحيطة بالموصل. وبذلك تكون قد استكملت مابدأته قوات تحرير العراق التي أرسلت الى تكريت والموصل في عام ١٦ هـ.

غير ان مما يلفت النظر أن هذه النصوص قد أشارت ايضا الى مقاتلة جند عياض بن غنم أهل نينوى، مما يوحي بأن بعض سكان المنطقة قد نقضوا العهد الذي أعطوه لعبدالله بن المعتم سنة ١٦هـ/ ٦٣٧ م بعد أن انسحبت معظم قواته من المنطقة وعادت الى قاعدة عملياتها الرئيسة في الكوفة. فاضطر عياض الى استعمال القوة من أجل بسط السلطة والنظام في المدينة. وربما كان ذلك أمرا طبيعيا في تلك المرحلة بسبب حداثة الحكم العربي للمدينة وعدم استيعاب بعض الناس للقيم الروحية والحضارية التي جاء بها الاسلام. أما عامة سكان الموصل وغيرها من المناطق التي كان يقطنها العرب المسيحيون فيبدو أنها قد استقبلت الحكم العربي الاسلامي بارتياح شديد لأنه انقذهم من المظالم التي كانوا يتعرضون لها على ايدي الروم البيزنطيين بسبب اختلافهم في المذهب.

لقد جاء في «تاريخ مارميخائيل الكبير» وهو بطريق انطاكية اليعقوبي، وقد ألف هذا الكتاب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي (٤٢)، مانصه: «وان الله، اله النقمة الذي وحده له السلطان على كل شيء، وهو الذي يغير الملك كما يشاء ويعطيه لمن

---

(٤٠) ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ١١٠.

(٤١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٧.

(٤٢) الياس الموصلي، بريصوم: الدر المنثور في تاريخ الدير والآداب السريانية، بغداد ١٩٧٦، ص ١٣؛ ارنولد: الدعوة الى الاسلام، ص ٧٢-٧٣.

يشاء، ويقيم على الضعفاء، اذ رأى خيانة الروم الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا كلما اشتد ساعدهم في الحكم، ويقاضوننا بلا رحمة، جاء من الجنوب بأبناء اسماعيل لكي يكون لنا الخلاص من ايدي الروم بواسطتهم، أما الكنائس التي كنا قد فقدناها باغتصاب الخلقدونيين اياها، فبقيت بيدهم، لأن العرب لدى دخولهم المدينة، ابقوا لكل طائفة ما بحوزتها من الكنائس. وقد فقدنا في هذه الفترة كنيسة الرها الكبرى وكنيسة حران، غير ان فائدتنا لم تكن يسيرة حيث اننا تحررنا من خبث الروم ومن شرهم وبطشهم وحقدهم المرير علينا وتمتعنا بالطمأنينة»[٤٣]. يتضح من النص الآنف الذكر ان المسيحيين قد عدّوا العرب المسلمين منقذين ومحررين لهم من ظلم واضطهاد الروم البيزنطيين وان مما ثبت هذه النظرة ان المسلمين كانوا يعدون المسيحيين أهل كتاب، وأن الاسلام يفرض عليهم عدم التعرض لعقائدهم بالأذى، ومعاملتهم معاملة حسنة لأنهم يعيشون في ذمة المسلمين وعهدهم، على العكس مما كان يفعله الروم البيزنطيون.

فقد ذكر مارميخائيل الكبير أن الروم البيزنطيين قد مارسوا شتى صور التعذيب والتنكيل ضد من يختلف معهم في المذهب من أبناء الطوائف المسيحية. فقد أصدر هرقل منشورا للعمل بموجبه في كافة انحاء مملكته، جاء فيه: «كل من لايقبل مجمع خلقدونية، يقطع أنفه، وأذانه، وينهب بيته. واستمر هذا الاضطهاد مدة غير يسيرة، فقبل العديد من الرهبان المجمع، وظهر غش رهبان جماعة مارون والمنبجيين والحمصيين والمناطق الجنوبية، وهكذا قبل معظمهم المجمع، واغتصبوا الكنائس والأديرة، ولم يسمح هرقل لأحد من الأرثوذكس بزيارته، ولم يقبل شكواهم بصدد اغتصاب كنائسهم»[٤٤].

ان ماتقدم يوضح الأبعاد الدينية والانسانية فضلا عن البعد القومي الذي جعل العرب المسيحيين في العراق والشام وغيرها على التعاون مع العرب المسلمين والترحيب بهم بصفتهم محررين ومنقذين لهم من الظلم والاضطهاد الذي عانوا منه طويلا على ايدي الروم البيزنطيين.

---

(٤٣) تاريخ مار ميخائيل الكبير (ترجمة: المطران صليبا شمعون)، نسخة مخطوطة بخط المترجم، ج ٢، ص ١٤٦، علما بان الكتاب قد قام بنقله ونشره باللغة الفرنسية القس بونا شابو.

(٤٤) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٤٦.

٢- حروب التحرير على جبهة الشام:

حين تولى عمر بن الخطاب (رض) الخلافة كانت الجيوش الاسلامية في الشام قد سجلت أحد ابرز انتصاراتها على الروم في معركة أجنادين ، وراحت تستثمر آثار هذا الانتصار في محاولة القضاء على القوة البيزنطية في مختلف انحاء بلاد الشام. فذكر البلاذري أن قوات المسلمين استطاعت ان تهزم الروم في معركتين كبيرتين في «وقعة فحل من الأردن»(٤٥) ، «ومرج الصفر وهم متوجهون الى دمشق».(٤٦)

وبينما كانت قوات المسلمين تحاصر مدينة دمشق ، وقد أوشكت أن تدخلها صلحا بعد ان ابدى سكانها رغبتهم في المصالحة ، وكانت القيادة بيد خالد بن الوليد وصلت رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة بن الجراح الذي كان أحد قادة الجيوش التي تعمل تحت أمرة خالد بن الوليد، وهو أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ ، يعلمه فيها انه قد عينه قائدا عاما على القوات المكلفة بتحرير بلاد الشام بدلا عن خالد بن الوليد (٤٧).

وقد ذكر البلاذري ان ابا عبيدة بن الجراح حين تسلم رسالة عزل خالد بن الوليد عن امارة الجيش كتمها واستمر يعمل تحت أمرة خالد حتى انتهى من تحرير دمشق وعقد الصلح مع أهلها. فلما سأله خالد عن سبب ذلك بقوله؛ «مادعاك- رحمك الله - الى مافعلت ؟ قال : كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بازاء عدو»(٤٨).

ان انتصارات المسلمين المتتالية في بلاد الشام قد فتحت الطريق امامها نحو الشمال ، حيث تقع حدود الأمبراطورية البيزنطية ومركز حكمها، مما أدخل الخوف الى قلب الأمبراطور البيزنطي وجعله يبادر الى حشد جموع كثيرة «من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية»(٤٩) لمقاتلة جيوش المسلمين حتى قدرت بعض الروايات عددهم بمائتي الف(٥٠) او ثلاثمائة الف في حين مالت روايات أخرى الى تقدير عددهم بمائة الف(٥١).

---

(٤٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٢.
(٤٦) المصدر نفسه : ، ص ١٢٥.
(٤٧) ابن خياط: تاريخ ، ج ١ ، ص ٩٤.
(٤٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٢.
(٤٩) المصدر نفسه: ص ١٤٠.
(٥٠) المصدر نفسه: ص ١٤٠.
(٥١) ابن خياط: تاريخ ، ج ١ ، ص ١٠٠.

لقد حملت هذه الاستعدادات الكبيرة للروم المسلمين على تجميع قواتهم من مختلف المناطق وحشدها في موضع يسهل الدفاع عنه في مواجهة قوات الروم. وكان ذلك الموضع هو وادي اليرموك في الأردن على حافة الصحراء ، حيث يسهل على العرب تلقي الامدادات والانسحاب عند الضرورة.

وقد بلغت قوات المسلمين التي حشدت لهذه المعركة كما يذكر البلاذري أربعة وعشرين الف مقاتل (٥٢). غير ان الطبري يذكر ان عددها قد بلغ ستة وأربعين الف مقاتل (٥٣).

وقد أشير الى ان المسلمين أفلحوا في اجتذاب العرب المتحالفين مع الروم للقتال الى جانبهم في هذه المعركة. فقد ذكر البلاذري ان جبلة بن الأيهم الغساني الذي كان على مقدمة جيش الروم في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم قد انحاز الى الأنصار فقال «أنتم أخوتنا وبنو أبينا ، وأظهر الاسلام» (٥٤).

وهكذا فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على مشكلة الفارق العددي بينهم وبين قوات الروم بسبب ارتفاع معنوياتهم ، وحسن استعدادهم للقتال واجتذابهم للعرب المتحالفين مع الروم للقتال الى جانبهم . وبذلك تمكنوا من الحاق هزيمة فادحة في قوات الروم البيزنطيين.

لقد حملت هزيمة الروم في معركة اليرموك التي وقعت في رجب من سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م (٥٥) امبراطور الروم على اليأس من استرجاع بلاد الشام مرة أخرى من أيدي المسلمين. فقد ذكر البلاذري أنه «لما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وايقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية الى قسطنطينية ، فلما جاوز الدرب قال: عليك ياسورية السلام ، ونعم البلد هذا للعدو» (٥٦).

ان انتصار المسلمين الحاسم على الروم البيزنطيين في معركة اليرموك، قد أفسح المجال امام المسلمين للعودة الى جميع المدن التي انسحبوا منها بعد تحريرها ، واستكمال تحرير المدن الأخرى. وان مما له دلالة عميقة حول معاملة المسلمين لسكان البلاد المحررة وموقف هؤلاء السكان منهم ، ماأورده البلاذري من أنه «لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ،

(٥٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٤١.
(٥٣) الطبري: تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٩٥.
(٥٤) البلاذري : فتوح ، ص ١٤٠ - ١٤٢.
(٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ ؛ ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٤٠.
(٥٦) البلاذري : فتوح ، ص ١٤٢.

وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود »(٥٧) . وهكذا فقد عاد المسلمون الى حمص وغيرها من مدن الشام بعد انتصارهم في اليرموك وبسط حفاوة وترحيب الناس بهم لأنهم نظروا اليهم بصفتهم محررين لافاتحين .

وقد كان قادة جيوش التحرير الاسلامية حريصون على تألف قلوب الناس وتحقيق اهدافهم بأيسر السبل وأقلها تضحيات في الأرواح ، لذا فانهم حينما حاصروا مدينة القدس التي كانت تدعى « أيلياء » وطلب أهلها الصلح مع المسلمين على ان يكون من يتولى عقده معهم الخليفة نفسه ، وافق ابو عبيدة بن الجراح أمير المسلمين في الشام على ذلك ، وكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بذلك ، فقدم عمر الى القدس فصالحوه على الجزية وفتحوها للمسلمين .(٥٨)

وقد أشارت بعض المصادر الى ان قدوم عمر الى بلاد الشام كان في سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م ، وأنه قد نزل في الجابية احدى عمال دمشق حيث اجتمع بقادة المسلمين فيها ، وتدارس معهم أوضاع بلاد الشام ومشكلاتها ووضع المعالجات اللازمة لها ، وربما تم الاتفاق في هذا الاجتماع على بعض الخطط المستقبلية وبخاصة ما يتصل بحروب التحرير والفتوحات .(٥٩)

وبعد أن استقرت الأوضاع في بلاد الشام والجزيرة بصورة تامة توجه عمرو بن العاص في حدود سنة ٢٠ هـ / ٦٤١ م الى مصر لتحريرها من التسلط البيزنطي على رأس جيش مؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل (٦٠) . ويبدو أن هذا الجيش كان بمثابة قوة استطلاع هدفها التعرف على مدى استعداد الروم لمقاومة المسلمين ، على ان تعقبها بعد ذلك الامدادات الضرورية لمساعدتها على تحقيق هدفها .

---

(٥٧) المصدر نفسه : ص ١٤٣ .

(٥٨) ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٥٩) البلاذري : فتوح ، ص ١٤٤ ؛ ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبدالله : فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ٥٣ ، ٥٦ .

(٦٠) ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ البلاذري : فتوح ، ص ٢١٤ .

وقد ذكر البلاذري ان عمرو بن العاص قد توجه بجيشه الى مصر بناءا على اجتهاده الخاص، وقبل أن يأخذ الموافقة على ذلك من الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، وأن الخليفة حين بلغته أخبار ذلك غضب وكتب الى عمرو بن العاص يأمره بالتوقف عن ذلك اذا لم تصل قواته أرض مصر بعد. غير ان عمرو بن العاص وضع الخليفة أمام الأمر الواقع وأخبره انه قد دخل مصر، مما حمل الخليفة على تقديم النجدة له، فأرسل الزبير بن العوام على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف او اثني عشر الف مقاتل لمساعدته في استكمال تحرير مصر.(٦١)

والحقيقة ان ماذكره البلاذري لايتفق مع أسلوب الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في سياسة الدولة وتوجيه عماله وقادة جيوشه، ولو صح ماأورده البلاذري آنفا لكان أقل مايفعله عمر بن الخطاب هو عزل عمرو بن العاص عن قيادة الجيش في مصر.

وقد اشارت مصادر أخرى الى ان عمرو بن العاص لم يدخل مصر الا بناءا على قرار وتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، وربما جاء هذا القرار بعد المداولات التي تمت بين الخليفة وعمرو بن العاص في الشام حينما اجتمع به الخليفة في الجابية (٦٢). فقد ذكر الطبري ان ابن اسحاق قال: «أن عمر رضي الله عنه حين فرغ من الشام كلها كتب الى عمرو بن العاص ان يسير الى مصر في جنده، فخرج حتى فتح باب اليون في سنة عشرين» (٦٣). وقد أكد ابن خياط نفس الرواية عن طريق غير طريق ابن اسحاق، فذكر ان عمر كتب الى عمرو بن العاص أن سر الى مصر فسار، وبعث عمر الزبير بن العوام مددا...» (٦٤).

وتتفاوت المصادر التاريخية في التفصيلات التي تقدمها عن الكيفية التي تم فيها تحرير مصر (٦٥). فقد ذكر البلاذري ان عمرو بن العاص سار من فلسطين الى مصر عن طريق الساحل البحري باتجاه العريش، حيث توجه منها الى «الفرما» (٦٦)، وهي مدينة في موقع مشرف حصين على مرتفع يبعد ميلا ونصف الميل عن البحر المتوسط. وكان اسمها

(٦١) البلاذري: فتوح، ص ٢١٤ – ٢١٥.
(٦٢) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٠.
(٦٣) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ١٠٤.
(٦٤) ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ١١٤.
(٦٥) ان اوسع مصدر في هذا المجال هو كتاب ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٣ – ٦٥.
(٦٦) البلاذري: فتوح، ص ٢١٤؛ ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ٥٨.

القديم بلوز (بيلوسيوم)[٦٧]. وكان في مدينة الفرما قوم مستعدون للقتال، فحاربهم عمرو ابن العاص وهزمهم وسيطر على معسكرهم[٦٨]. ثم واصل منها تقدمه الى منطقة القاهرة القديمة «الفسطاط» وكان فيها حصن منيع اسمه بابليون، اطلق عليه بعض المؤرخين العرب اسم «اليونة»[٦٩]. يقول البلاذري أن عمرو بن العاص «مضى قدما الى الفسطاط فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط، وكان اسم المدينة اليونة فسماها المسلمون فسطاطا لأنهم قالوا: هذا فسطاط القوم ومجمعهم»[٧٠].

لقد حاصرت قوات عمرو بن العاص حصن بابليون، وفي اثناء الحصار وصلتها النجدة بقيادة الزبير بن العوام ومعه جيش مؤلف من حوالي عشرة آلاف الى اثني عشر الف مقاتل مما ساعد عمرو بن العاص على ارغام أهل الحصن على طلب الصلح والموافقة على أداء الجزية للمسلمين[٧١].

بعد هذا النجاح الذي حققته قوات المسلمين في بابليون، قام عمرو بن العاص بارسال حملات متفرقة الى مختلف المدن والقرى المصرية لاخضاعها للسلطة الاسلامية، فوجه «عبدالله بن حذافة السهمي الى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجه بن حذافة العدوي الى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك....»[٧٢]، وهكذا توالت الحملات حتى «استجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج»[٧٣].

وأخيرا جمع عمرو بن العاص قواته وتوجه لتحرير الأسكندرية آخر معاقل الروم في مصر. وفي الطريق قابلته قوات الروم وحلفاؤهم من القبط عند منطقة تدعى النكريون، فاشتبك معهم في معركة عنيفة تمكن فيها من الحاق الهزيمة بهم «وقتل منهم مقتلة عظيمة»[٧٤]. وقد أدت هذه الهزيمة الى تحطيم معنويات الروم وانسحابهم الى الأسكندرية للتحصن بها. غير ان جيش المسلمين واصل تقدمه نحو الأسكندرية وفرض حصارا شديدا

(٦٧) صالح مهدي عباس: القيادة الناجحة، بغداد ١٩٧٠، ص ٦٦.
(٦٨) البلاذري: فتوح، ص ٢١٤: ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ٥٨.
(٦٩) عباس: القيادة الناجحة، ص ٧٢.
(٧٠) البلاذري: فتوح، ص ٢١٤.
(٧١) المصدر نفسه، ص ٢١٦، ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ٦١-٦٢.
(٧٢) البلاذري: فتوح، ص ٢١٨.
(٧٣) المصدر نفسه: ص ٢١٨.
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

عليها استمر ثلاثة أشهر حتى أرغم القوات المدافعة عن المدينة على الاستسلام وقبول شروط الصلح التي عرضها عليهم عمرو بن العاص [٧٥]. وبذلك اصبحت جميع مصر ضمن أقاليم الدولة العربية الاسلامية ، وكان ذلك في حدود سنة ٢١هـ/ ٦٤٢ م [٧٦].

بعد ان حققت قوات المسلمين اهدافها في مصر واستقرت الأوضاع لها فيها توجهت غربا باتجاه برقة وطرابلس ، فتم لها تحريرها من الروم البيزنطيين وعقد الصلح مع أهلها وذلك في حدود سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م ، وبذلك تم ترسيخ الوجود العربي الاسلامي في أفريقيا حيث ستتواصل بعد ذلك حملات الفتح والتحرير [٧٧].

وهكذا نلاحظ ان سياسة التحرير والفتح التي انطلقت قبل عشر سنوات اثر حروب الردة التي كانت تهدد وحدة الدولة العربية الاسلامية الناشئة ووجودها بالخطر، قد حققت نجاحا باهرا، ربما تجاوز كثيرا ما كان يحلم ابو بكر الصديق (رض) في تحقيقه حينما أذن ببدء هذه السياسة، إذ استطاعت الجيوش الاسلامية ان تهزم اكبر امبراطوريتين في العالم، وتمد سلطانها الى العراق والشام ومصر وليبيا، حيث تمكنت من خلال ذلك من توحيد ابناء القبائل العربية ضمن اطار الأمة الواحدة، وتأمين المجال الحيوي للدولة العربية الاسلامية الناشئة ان تنمو وتتطور على أرضية ملائمة اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا.

لقد تساءل العديد من الباحثين عن السر الذي يقف وراء هذا النجاح العظيم الذي حققه العرب المسلمون في حروب التحرير، وحاول البعض البحث عن ذلك السر في الضعف الداخلي الذي كانت تعاني منه الأمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية من انقسام ديني وتباين اجتماعي ، وارهاق للناس في الضرائب ، وانهاك نتيجة الحروب الطويلة. غير ان هذه العوامل على أهميتها هي عوامل سلبية ساعدت العرب المسلمين على التغلب على هاتين الأمبراطوريتين [٧٨].

ان العامل الايجابي المحرك للأحداث الذي وحّد ابناء القبائل العربية المتفرقة ، وأوجد لديهم الحافز المعنوي على الجهاد والاندفاع في حروب التحرير هو الاسلام «فالقوة الدافعة في الدين الجديد ، وقوة الشعب العربي وتحفزه واجتماع كلمته كانت سر تفوقه» [٧٩].

---

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ : ابن عبد الحكم: فتوح مصر ، ص ٧٢.
(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢١- ٢٢٥.
(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥- ٢٢٧.
(٧٨) الدوري : تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٧.
(٧٩) المربع نفسه ، ص ٤٦.

وهكذا حقق العرب أعظم انجازهم بالاسلام ، وحقق الاسلام أكبر انجازاته بالعرب . فلا عجب ان يبقى الاسلام والعرب متلازمين في نظر مختلف شعوب الأرض مدة طويلة من الزمن .

ان عوامل القوة التي أفرزتها حروب التحرير والفتح كان لابد ان تصحبها بعض العوامل السلبية التي تتطلب العلاج السريع والحاسم في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية . ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان منتبها لذلك ، لذا فانه كان يبادر الى وضع المعالجات والتنظيمات لمواجهة المواقف والتطورات التي تنشأ عن الأحداث في حينها . ان استكمال فهم التطور الذي حصل في زمن الخليفة الثاني يتطلب تقديم عرض مركز عن أهم التنظيمات التي تمت في عهده (٨٠) .

٣- التنظيمات المالية للدولة :

كان اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الأساس في السنوات الأولى من حكمه التي امتدت من سنة ١٣ هـ - ١٧ هـ ، زفد جبهات القتال بالمقاتلين وتوجيه قيادات الجيش من أجل حسم المعارك الناشئة مع الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين لصالح الدولة العربية الاسلامية الفتية .

ومن ثم ، فلم تشهد هذه السنوات تغييرات واضحة في تنظيمات الدولة المالية والادارية ، واستمرت الحالة كما كانت قائمة في عهد الرسول ﷺ وخليفته ابي بكر الصديق (رض) .

يقول ابن سلام : «لما افتتح عمر العراق والشام وجبي الخراج جمع أصحاب النبي ﷺ فقال : اني قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله الذين افتتحوه ، فقالوا : نعم الرأي رأيت ياأمير المؤمنين» (٨١) .

وقد أشارت بعض المصادر الى ان قرار الخليفة عمر بن الخطاب بفرض العطاء قد تم في سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م في الجابية حينما اجتمع بقادة جيشه وتشاور معهم في امور البلاد

(٨٠) لمن أراد دراسة تنظيمات عمر بشكل مفصل الرجوع الى رسالة الماجستير المتميزة : «التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب» للسيد باسل طه جاسم واشراف الدكتور هاشم يحيى الملاح كلية الآداب - جامعة الموصل ، سنة ١٩٨٨ ، مطبوعة على الآلة الكاتبة .

(٨١) ابن سلام : «الاموال» ص ٢٢٤ .

المحررة بوسيل معالجة القضايا والمشكلات التي بدأت تواجه الدولة أثر انتصار الجيوش الاسلامية في حروب التحرير(٨٢).

ويلاحظ ان الخليفة عمر بن الخطاب لم يتخذ قرار فرض العطاء واستحداث الديوان الاّ بعد ان توافرت للدولة موارد مالية دائمة نتيجة فرض ضريبة الخراج على أراضي البلاد المحررة ، لذا كان من الضروري ان تبدأ دراسة التنظيمات المالية للدولة بالحديث عن موارد الدولة ثم نعقبها بالكلام على نفقاتها وبخاصة العطاء والتنظيمات التي ارتبطت به كالديوان وغير ذلك.

أ. الايرادات المالية للدولة :

تألفت ايرادات الدولة في عهد الرسول ﷺ بصورة أساس من خمس الغنائم التي كان يحصل عليها المسلمون في الحروب وكذلك من الفيء ، وهي ايرادات ليست دائمة ولا ثابتة ، وكان الرسول ﷺ يتصرف فيها على وفق احتياجات الدولة والمجتمع حال وصولها في معظم الأحيان(٨٣) . وقد سار ابو بكر الصديق (رض) في خلافته على هذا النهج(٨٤) ، وتابعه عمر بن الخطاب عليه في سنوات حكمه الأولى ، فكان يوزع على الناس مايأتيه من غنائم وكان مقدار هذه الغنائم على درجة من الكثرة بحيث جعلت الخليفة يحزن ويحتار في كيفية توزيعها على الناس. فقد ذكر أن أخماس فارس حينما جلبت الى المدينة قال عمر بن الخطاب (رض) : «واللّه لايحنها سقف دون السماء حتى أقسمها بين الناس. قال : فأمر بها فوضعت بين صفي المسجد ، وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبد اللّه بن ارقم فباتا عليها ، ثم غدا عمر (رض) بالناس عليه فأمر بالجلابيب فكشفت عنها ، فنظر عمر الى شيء لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة ، فبكى. فقال له عبد الرحمن ابن عوف هذا من مواقف الشكر ، فما يبكيك؟ فقال : أجل ، ولكن اللّه لم يعط قوماً هذا الاّ ألقى بينهم العداوة والبغضاء. ثم قال : اتحثو لهم او نكيل لهم بالصاع؟ قال : ثم اجمع رأيه على ان يحثو لهم فحثا لهم ، قال : وهذا قبل ان يدون الدواوين»(٨٥).

(٨٢) البلاذري : فتوح ، ص ١٤٤ ؛ ابن سلام الاموال ، ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٨٣) ابن سلام : الاموال ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

(٨٤) أبو يوسف : الخراج ، ص ٤٠.

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ١٩.

واذا كانت ضخامة الغنائم التي حصل عليها المسلمون في حروب التحرير قد أدخلت الحزن والقلق في نفس الخليفة الراشد بسبب خوفه من الآثار السلبية التي ستترتب على توزيعها ، فان مسألة الأراضي المحررة في العراق والشام وغيرها وكيفية التصرف بها ، وهل توزع على الجند المقاتلين ام تبقى بيد اصحابها وتفرض عليها ضريبة الخراج قد شغلت ذهن الخليفة عمر بن الخطاب كثيراً ، وكان قراره بشأنها هو الأساس الذي قامت عليه التنظيمات المالية في الدولة العربية الاسلامية .

ويبدو ان الخليفة عمر بن الخطاب لم يفكر في بداية عهده في مسألة توزيع الأراضي المحررة على المقاتلين ، واستمر باقرار أصحاب الأراضي على أملاكهم يزرعونها ويستثمرونها كما كانوا يفعلوا في الماضي ، على ان يقوموا بأداء ضريبة الجزية الى المسلمين ، وهي السياسة التي سار عليها ابو بكر الصديق في معاملة بعض مناطق سواد العراق التي حررها خالد بن الوليد مثل الحيرة ، وبانقيا ، وأليس ، وكلواذا وعانات (٨٦) : بل ان الخليفة عمر ابن الخطاب قد نهى عن انتزاع أراضي الفلاحين ، وطلب من المسلمين ابقاءهم في اراضيهم لزراعتها واستثمارها . فقد روى البلاذري ان المسلمين حينما فتحوا الأحواز في حدود سنة ١٥ هـ حاولوا اقتسام أهلها فكتب اليهم عمر بن الخطاب (ض) «أنه لاطاقة لكم بعمارة الأرض فخلوا ما في ايديكم من السبي واجعلوا عليهم الخراج» (٨٧) .

ان هذا الموقف من مسألة الأراضي ينسجم بمجمله مع سياسة المسلمين في تألف قلوب سكان البلاد المحررة ودعوتهم للتعاون معهم . كما انه يضمن استثمار الأراضي الزراعية بصورة جيدة ويؤمن مورداً مستمراً للدولة الاسلامية بما يدفعه لها أصحاب هذه الاراضي من ضريبة الخراج . فضلاً عما تقدم فان هذا الموقف يحافظ على توجه ابناء الأمة نحو الجهاد ، بينما يؤدي توزيع الاراضي المحررة عليهم الى انصرافهم للعمل في الزراعة والتطلع لتنمية ثرواتهم المادية . لذا فقد كان رأي قادة جيوش التحرير مثل سعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص مطابقاً لموقف الخليفة في عدم توزيع الأراضي على المقاتلين (٨٨) .

ان استقراء الروايات حول مسألة تقسيم الأراضي المحررة يشير الى أن الموضوع لم يطرح حينما كانت حروب التحرير في أوج قوتها ، وكانت الغنائم التي تأتي نتيجة لها كثيرة . اما حينما اوشكت حروب التحرير على تحقيق أهدافها ، وبدأ مورد الغنائم يميل الى النضوب ،

(٨٦) الصدر نفسه ، ص ١٤٢ - ١٤٦ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ - ٢٧٥ .
(٨٧) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٧٠ ؛ ينظر ايضا : الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥ .
(٨٨) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٤ ؛ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٨٨ .

فقد بدأ الرأي الذي يدعو الى تقسيم الأراضي على المقاتلين يرتفع ويشتد وكان ذلك في حدود سنة ١٧ هـ.

وقد استندت دعوة المطالبين بتقسيم الأراضي الى القول بأن الأراضي المحررة هي غنيمة وأن من الواجب تقسيمها على المقاتلين وفقاً للآية القرآنية : ﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ...﴾ (٨٩).

وقد فات هؤلاء المطالبين ان الرسول ﷺ لم يوزع من الغنائم المشار اليها في الآية الكريمة سوى الأموال المنقولة ، فكان يوزع أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين ويبقي الخمس للدولة توزعه على وفق الاحتياجات العامة التي حددها القرآن الكريم. أما الأراضي فانه لم يعدها غنيمة ، ولم يوزعها على المقاتلين (٩٠).

غير ان هذه الدعوة اكتسبت بعض القوة نتيجة لتبني بعض الصحابة البارزين لها بقوة وهم عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال الحبشي حيث كانوا يعترضون على موقف عمر بابقاء الأراضي بيد أصحابها مقابل دفعهم ضريبة سنوية عنها تنفق في مصالح المسلمين بقولهم : «اتقف ماأفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء ابنائهم ولم يحضروا» (٩١).

لقد اضطرت هذه الأفكار عمر بن الخطاب (رض) الى إستشارة كبار الصحابة في هذه المسألة فأيدوه في موقفه وكان من بين مؤيديه من المهاجرين عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب وطلحة بن عبيد الله وعبدالله بن عمر فضلاً عن زعماء الأوس والخزرج من الأنصار (٩٢).

لذا فقد اطمأن قلب الخليفة عمر بن الخطاب الى سلامة موقفه ، ومن ثم فقد شرع بوضعه موضع التنفيذ ، فكتب الى عماله في العراق والشام ومصر يأمرهم بابقاء الأراضي بيد اصحابها وأن يأخذوا منهم ضريبة الخراج للاستعانة بها في سد نفقات الدولة واحتياجات المجتمع (٩٣).

---

(٨٩) سورة الأنفال ، الآية ٤١.

(٩٠) للمزيد من التفصيل راجع بحث الدكتور هاشم الملاح والدكتور لجمان ياسين في «بني النضير» دراسات في التاريخ والآثار، بغداد ١٩٨٤، عدد ٤، ص ٤٢ وما بعدها.

(٩١) ابو يوسف : الخراج ، ص ٢٥ - ٢٦.

(٩٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥.

(٩٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤، ١٤٠ - ١٤١. ابن سلام : كتاب الاموال

ويبدو أن جباية هذه الضريبة قد اعتمد في البداية على الأسس التي كانت سائدة في البلاد المحررة في عهد الأمبراطورية الساسانية والبيزنطية. غير ان عمر بن الخطاب قد قام بعد ان استقرت أمور الفتوحات في حدود سنة ٢٢ هـ (٩٤) بالعمل على اجراء تعديلات على مقادير وأسس جباية هذه الضريبة بما يحقق العدالة للناس. فقد ذكر ابو يوسف أن عمر بن الخطاب (رض) قد قام بتكليف كل من حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف بمسح أرض سواد العراق وتحديد مقدار الخراج عليها، وأنه سألهما بعد ان انجزا عملهما قائلا: «كيف وضعتما على الأرض، لعلكما كلفتما أهل عملكما مالا يطيقون؟ فقال حذيفة: لقد تركت فضلا، وقال عثمان: لقد تركت الضعف، ولو شئت لأخذته» (٩٥).

وعلى الرغم من حرص الخليفة وعماله على عدم ارهاق الناس في جباية الخراج، فان الروايات تشير الى ان الايرادات السنوية لهذه الضريبة كانت كبيرة. فقد ذكر ابو يوسف ان جباية سواد الكوفة وحدها قد بلغت عام ٢٢ هـ مائة الف درهم (٩٦). وأشار البلاذري الى أن خراج مصر في ولاية عمرو بن العاص بلغ الفي الف دينار (٩٧). والحقيقة ان هذه التقديرات قد لاتخلو من مبالغة، الا ان دلالتها العامة قد تساعد على تكوين فكرة عن ايرادات الخراج وكيف انه يشكل المورد الأساس لمالية الدولة. ويبدو أن ضخامة ايرادات هذه الضريبة قد جعلت الخليفة عمر بن الخطاب يتفاءل بالمستقبل ويفكر بتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية الشاملة بين الناس وذلك بحسن توزيع الأموال عليهم، فقال حين أخبر عن جباية خراج سواد العراق: «والله لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعنهم لايفتقرون الى أمير بعدي» (٩٨).

ولم تقتصر ايرادات الدولة في عهد عمر بن الخطاب (رض) على ضريبة الخراج، بل أضيف اليها ماتغله اراضي الصوافي التي اصبحت مملوكة للدولة. وكانت هذه الأراضي مملوكة للأسر الحاكمة والنبلاء من الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين فلما قتلوا أو هربوا نتيجة لحروب التحرير انتقلت ملكية هذه الأراضي الى الدولة، فقامت باستغلالها واستثمارها بما يحقق المصلحة العامة للدولة والمجتمع (٩٩).

---

(٩٤) ابن خياط: تأريخ، ج ١، ص ١٢٢.
(٩٥) ابو يوسف: الخراج، ص ٣٧.
(٩٦) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٩٧) البلاذري: فتوح، ص ٢٢٠.
(٩٨) ابو يوسف: الخراج، ص ٣٧.
(٩٩) ابن سلام: الأموال، ص ٢٨٣.

ويبدو أن إيرادات اراضي الصوافي قد شكلّت مورداً مهماً من موارد الدولة ، فقد ذكر ان ايرادات الدولة من صوافي سواد العراق في عهد عمر بن الخطاب [رض) قد بلغت أربعة الآف الف درهم (١٠٠) . كما ورد في رواية أخرى انها بلغت ستة الآف آلاف درهم (١٠١) . وربما كان مصدر التباين في هذين التقديرين أنها يعودان لسنتين مختلفين .

وقد أشارت المصادر الى وجود صنف ثالث من الأراضي ، وهي الأراضي التي صالح أهلها المسلمين على ان يدفعوا اليهم ضريبة سنوية متفق عليها ويحتفظوا بملكية اراضيهم لأنفسهم . لقد شكلت هذه الضريبة موردا آخر من الموارد المالية للدولة ، وإن لم تكن لدينا تفاصيل كافية عنها . وعلى سبيل المثال ، فقد ذكر الطبري ان خالد بن الوليد حين قدم الى الحيرة صالح أهلها على ان يدفعوا للدولة سنوياً « تسعين الف درهم ، فكانت أول جزية وقعت بالعراق » (١٠٢) .

اذا كانت الضرائب على الأراضي قد شكلّت المورد الأساس من ايرادات الدولة ، فان الضريبة على رؤوس أهل البلاد المحررة الذين لم يدخلوا في الاسلام وفضّلوا البقاء على دينهم ، والتي سميت بـ « الجزية » قد ساهمت هي الأخرى في رفد مالية الدولة بايرادات لابأس بها . فقد روى ان هذه الضريبة كانت تجبى من أهل الذمة ومن في حكمهم . فقد فرض في العراق على كل فرد موسر « ثمانية وأربعون درهما ، وعلى الوسط اربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما ، يؤخذ ذلك منهم في كل سنة » (١٠٣) . وكان يعفى من اداء الضريبة العاجزون ، « ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق عليه ، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذمي يتصدق عليه ولا من مقعد » (١٠٤) . وكذلك لاتؤخذ الجزية من النساء والصبيان (١٠٥) .

ويلاحظ انه على الرغم من الاعفاءات الكثيرة من هذه الضريبة وتأكيدات الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بالرفق في معاملة أهل الذمة وعدم تكليفهم مالا يطيقون (١٠٦) ، فإن بالامكان افتراض ان هذه الضريبة كانت تدر على الدولة مبلغاً كبيراً من المال سنوياً

(١٠٠) ابو يوسف : الخراج ، ص ٥٧ .
(١٠١) المصدر نفسه ، ص ٥٧ ، ابن سلام : الأموال ، ص ٢٨٣ .
(١٠٢) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ ، جاسم : التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ص ١١٩ .
(١٠٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٢٢ .
(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .
(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

لأنها كانت تجبى من كل فرد قادر على اداء الضريبة من أهل الذمة بصورة سنوية. وكان أهل الذمة يشكلون أغلبية سكان البلاد المحررة والمفتوحة في عهد عمر بن الخطاب (رض).

ان ماتقدم، يوضح كيف ان تنظيمات عمر بن الخطاب (رض) المالية قد ضمنت للدولة موارد مالية دائمة بالاضافة للموارد الأخرى التي تأتيها من خمس الغنائم وغيرها، مما مكنها من وضع سياسة ثابتة في العطاء لتغطية نفقات الجند وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، وهو ماسنوضحه في الصفحات الآتية.

ب. النفقات المالية للدولة (العطاء):

بعد ان فرغ الخليفة عمر بن الخطاب (رض) من تنظيم ضريبة الخراج والجزية كما قدمنا، وكان ذلك في حدود سنة ١٧ هـ استشار بعض الصحابة بشأن وضع رواتب سنوية للمقاتلة وعوائلهم وذوي الحاجة من أفراد المجتمع، فشجعوه على ذلك. يقول ابو يوسف انه لما فتح الله على عمر بن الخطاب (رض) «فارس والروم جمع اناسا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ماترون فاني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فانه أعظم للبركة، قالوا اصنع مارأيت، فانك ان شاء الله موفق»(١٠٧).

لقد كان هدف عمر بن الخطاب (رض) من فرض العطاء هو ايجاد مورد مالي ثابت للمقاتلين بصورة أساس «بحيث يضمن لكل فرد حصته، سواء ساهم في الفتوح الأولى، أوكان مستعدا للمساهمة في الفتوح والحروب المنتظرة.... وقد خص عمر المقاتلة الأولى بالأفضلية في العطاء، دون أن يغفل بقية الناس من العطاء بصرف النظر عن أصلهم وعشائرهم او مكانتهم»(١٠٨).

ويبدو أن عمر بن الخطاب (رض) قد قام في البداية بتوزيع العطاء استناداً الى مبدأ التسوية كما كان الأمر في عهد سلفه ابي بكر الصديق (رض) فقد ذكر ابن سلام ان عمر ابن الخطاب (رض) خطب في الجابية فقال: «ان هذا الفيء شيء أفاءه الله عليكم»

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٤٤.
(١٠٨) العلي، د. صالح احمد: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بغداد ١٩٦١، ص ١٤٨.

الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ، ليس أحد أحق من أحد ، ... ثم قسم بين الناس ، فأصاب كل رجل منهم نصف دينار ، اذا كان وحده ، فاذا كانت معه امرأته أعطاه دينارا »(١٠٩) .

غير ان عمر بن الخطاب (رض) عدل عن التسوية في توزيع العطاء على الناس ، وأخذ يوزع العطاء استنادا الى مبدأ التفضيل في العطاء بعد أن أنشأ الديوان وذلك في حدود سنة ٢٠ هـ(١١٠) .

لقد أوضح الخليفة عمر بن الخطاب الأسس التي يقوم عليها مبدأ التفضيل في العطاء في احدى خطبه فقال : « والله الذي لا اله الا هو ، ما أحد الا وله في هذا المال حق ، أعطيه او منعه ، وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك ، وما أنا فيه الا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله ﷺ ، فالرجل وتلاده في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغناءه في الاسلام ، والرجل حاجته في الاسلام ، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو في مكانه قبل ان يحمر وجهه »(١١١) .

يظهر مما تقدم ، أنه في الوقت الذي اكد فيه عمر بن الخطاب (رض) حق جميع المسلمين الأحرار في الحصول على نصيب من العطاء ، فانه حصر هذا الحق في اطار نوع من التمايز يقوم على أساس الأسبقية في اعتناق الاسلام والجهاد في سبيله . وقد أشير الى ان سبب تبني الخليفة لهذا التوجه هو رغبته في استرضاء كبار الصحابة و « المحررين الأوائل الذين كانوا يرون ضرورة تميزهم عن غيرهم ، مكافأة لهم على خدماتهم التي قدموها للدولة العربية الاسلامية منذ بداية تأسيسها »(١١٢) .

وهكذا فقد قام عمر بن الخطاب (رض) بتوزيع العطاء على الناس ، فبدأ بتوزيع العطاء على المقاتلين على وفق التدرج الآتي :

١ . فرض لكل من ساهم في معركة بدر خمسة الآف درهم(١١٣) .

٢ . فرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدا أربعة الآف درهم(١١٤) .

---

(١٠٩) ابن سلام : الاموال ، ص ٢٦٣ .

(١١٠) البلاذري : فتوح ، ص ٤٣٦ .

(١١١) ابو يوسف : الخراج ، ص ٤٦ .

(١١٢) باسل طه جاسم : التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ٥٤ .

(١١٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ٤٤ .

(١١٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

٣. وفرض لمن شهد الحديبية ثلاثة الآف درهم (١١٥).
٤. وفرض لكل من أسلم بعد فتح مكة ، وساهم في حروب التحرير الفي درهم (١١٦).
٥. وفرض لأهل الأيام من ابناء القبائل التي شاركت في فتح مكة وحاربت المرتدين واشتركت في معركة القادسية ثلاثة الآف درهم (١١٧).
٦. وفرض لأهل الأيام من المرتبة الثانية الذين ساهموا في معركة القادسية او اليرموك الفين وخمسمائة درهم (١١٨).
٧. وفرض للروادف الذين التحقوا بالقتال بعد معارك القادسية واليرموك عطاءً يتراوح بين الألف درهم والمائتي درهم حسب حالة كل فئة (١١٩).

ولم يقتصر العطاء على المقاتلين ، بل شمل فئات اجتماعية عدة ، وكان لكل منها عطاؤها الذي يتناسب مع وضعها الخاص :

١. أعطى لبعض الرجال والنساء من أقرباء الرسول ﷺ عطاءً خاصاً ، ففرض للعباس عم النبي ﷺ اثني عشر الف درهم (١٢٠) ، وفرض مثله لعائشة زوجة النبي ﷺ (١٢١) ، كما أعطى لكل زوجة من زوجات الرسول ﷺ عشرة الآف درهم (١٢٢) ، وفرض لكل من الحسن والحسين خمسة الآف درهم لمكانتهم الخاصة من الرسول ﷺ (١٢٣).
٢. فرض لأبناء الصحابة الذين ساهم آباؤهم في معركة بدر من المهاجرين والأنصار الفي درهم لكل واحد منهم (١٢٤).

---

(١١٥) البسوي ، يعقوب بن سفيان : المعرفة والتاريخ ، بغداد ١٩٧٤ ، ج ١ ، ص ٤٦٣.
(١١٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٩٧.
(١١٧) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٥٦٨.
(١١٨) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٩٨.
(١١٩) الطبري : تأريخ ، ج ٣ ، ص ٦١٤.
(١٢٠) ابو يوسف : الخراج ، ص ٤٣.
(١٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ابن سلام : الاموال ، ص ٢٢٦.
(١٢٢) ابن سلام : الاموال ، ص ٢٢٦.
(١٢٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ٤٣.
(١٢٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

٣ . وقد فرض الخليفة للنساء العطاء أيضاً ، فرض للمهاجرات الأول مثل أسماء بنت عميس وأسماء بنت أبي بكر ، وأم عبدالله بن مسعود ألف درهم لكل واحدة منهن (١٢٥) .

أما بقية النساء فقد تدرج في توزيع العطاء عليهن وفقاً لمساهمة أزواجهن في القتال « فجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة ، ونساء من بعدهم الى الحديبية على أربعمائة أربعمائة ونساء من بعد ذلك الى الأيام ثلثمائة ثلثمائة ، ونساء أهل القادسية مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك ، وجعل الصبيان سواء على مائة مائة » (١٢٦) أي أنه جعل عطاء بقية النساء مساوياً لعطاء الصبيان ، وهو مائة درهم ، ويشمل هذا العطاء جميع نساء وصبيان المسلمين ممن لا يقعون ضمن الفئات التي أشير إليها في الفقرات الواردة آنفاً .

٤ . لقد ساوى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في العطاء بين القوم وموالـيهم . فقد روى سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب « فرض لأهل بدر المهاجرين من العرب والموالي خمسة آلاف خمسة آلاف وللأنصار ومواليهم أربعة آلاف أربعة آلاف » (١٢٧) . كما ذكر أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد « ومن إعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم ، لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتكم في العطاء والمعروف » (١٢٨) .

إن تفاصيل ما تقدم عن مراتب العطاء ومقاديره والفئات التي وضعت ضمن إطار كل مرتبة ليست موضع إتفاق كامل بين المؤرخين القدامى والمحدثين ، وقد كتب حولها العديد من الدراسات الجادة (١٢٩) ، وليس الغرض من هذا المبحث هو الوصول الى حل لكل الخلافات والاشكاليات التي يثيرها هذا الموضوع ، وإنما الهدف الأساس له هو رسم صورة إجمالية عن تنظيم العطاء على التفضيل كما وضعه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) من أجل الوصول الى فهم أفضل للنتائج الايجابية والسلبية التي ترتبت على تطبيقه في عهده وفي عهد الخليفة عثمان (رض) من بعده .

---

(١٢٥) ابن سلام : الاموال ، ص ٢٤١ .

(١٢٦) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦١٤ – ٦١٥ .

(١٢٧) ابن سلام : الاموال ، ص ٢٣٩ .

(١٢٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .

(١٢٩) راجع على سبيل المثال : العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص ١٤٦ – ١٦٥ ؛ ياسين : الموارد والانفاق الاقتصادي في عصر الرسالة والراشدين ، ص ٢١٥ – ٢٢٦ ؛ باسل طه جاسم : التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ص ١ – ٧ .

ويلاحظ أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان يأمر بتوزيع بعض المواد العينية الى الناس في أوقات مختلفة فضلاً عن العطاء المالي ، وكان الغالب أن تكون هذه المواد غذائية ، وتوزع على الناس بالتساوي دون تفريق بين حر وعبد ، رجل وإمرأة ، فقد ذكر ابن سلام أن عمر بن الخطاب (رض) قال : « إني قد فرضت لكل نفس مسلمة في كل شهر مدى حنطة وقسطي خل ، وقسطي زيت ، فقال رجل : والعبيد؟ فقال : نعم ، والعبيد »(١٣٠) .

إن تطبيق نظام العطاء بحكم ما يتطلبه من قبض الأموال وتوزيعها على مستحقيها بفئاتهم المختلفة وبصورة دورية ، كان يتطلب وجود تنظيم متخصص للقيام بذلك . وقد تمثل هذا التنظيم بالديوان الذي أنشأه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في سنة ٢٠ هـ ، فما هو الديوان وكيف كان يمارس وظائفه ؟

جـ — الديوان :

الديوان عند علماء اللغة هو « مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية »(١٣١) ، فالديوان يعني السجل الذي تدون فيه أسماء المستفيدين من العطاء ، وهو يعني أيضاً المكان الذي يحفظ فيه هذا السجل .

وتجمع المصادر التاريخية على أن أول من إستحدث الديوان في الإسلام هو الخليفة عمر بن الخطاب (رض) . يقول ابن سعد أن عمر « أول من دوّن الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الفيء »(١٣٢) . ويشير البلاذري الى أن الخليفة عمر (رض) قد أجمع على تدوين الديوان في شهر محرم من سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م .

ويلاحظ أن الاسم الذي أطلق على هذا التنظيم الناشيء هو « الديوان » غير أنه بمرور الزمن أخذ يعرف طبقاً لوظيفته فقيل عنه ديوان العطاء(١٣٣) ، كما أطلق عليه إسم ديوان الجند(١٣٤) .

---

(١٣٠) ابن سلام : الاموال ، ص ٢٤٧ .

(١٣١) الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ .

(١٣٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(١٣٣) الطبري : تاريخ ، ج ٧ ، ص ٥٥٩ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٦٦ .

وقد ذكر أن سبب إستحداث عمر بن الخطاب (رض) للديوان أنه جاءته أموال كثيرة من البلاد المحررة ، فتحير كيف يوزعها فاستشار الناس في ذلك ، فقال له رجل من القوم : ياأمير المؤمنين دوّن للناس دواوين يعطون عليها ، فاشتهى عمر ذلك »[١٣٥] ، وفي رواية ابن سعد أن الرجل قال له : « إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً ، يعطون الناس عليه ، قال : فدون الديوان »[١٣٦] وقد أشار البلاذري الى أن الرجل الذي إقترح إنشاء الديوان هو الوليد بن هشام بن المغيرة ، إذ قال لعمر : « قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً وجندوا جنداً ، فدوّن ديواناً وجنّد جنداً »[١٣٧] .

وهكذا فقد شرع الخليفة عمر (رض) بتدوين الديوان فكلف كلاً من عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم بتدوين أسماء الناس الذين يشملهم نظام العطاء وفقاً لأنسابهم ودرجة قرابتهم من الرسول ﷺ[١٣٨] .

ونظراً لأن توزيع العطاء لم يكن يتم بطريقة مركزية ، وإنما يتولى كل مصر توزيع عطائه مما يرده من إيرادات خاصة به ، وما زاد عن حاجته يقوم بإرساله الى المدينة ، فقد تطلب الأمر إنشاء دواوين في الأمصار مشابهة لديوان المدينة فكان هناك ديوان في البصرة وديوان في الكوفة وآخر في الشام ، وهكذا[١٣٩] .

وقد تطلب توزيع العطاء إيجاد تنظيم يرتبط بالديوان هو نظام العرفاء ، فكان يطلب من مسؤول كل عشيرة أو قبيلة أو وحدة ، حسب أوضاع وظروف كل مصر ، أن يكون لديه سجل فيه أسماء المقاتلة من أفراد قبيلته أو وحدته ، وتجهيزاتهم ومقدار عطائهم وعواليهم ، بالاضافة الى نسائهم وأطفالهم من أجل القيام بتوزيع العطاء عليهم عند الاستحقاق وجمع المقاتلين منهم عند حصول النفير للقتال[١٤٠] .

لقد ساعد نظام العطاء على تقوية دور السلطة المركزية للدولة وربط الناس بها من خلال تأثيرها على نظام حياتهم ومعيشتهم . وقد ترتب على توزيع العطاء ، وبخاصة بالنسبة لذوي العطاءات العالية ، ظهور فئة من ذوي الدخل الدائم ، الذين أخذوا ينفقون جانباً

---

(١٣٥) أبو يوسف : الخراج ، ص ٤٥ .

(١٣٦) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

(١٣٧) البلاذري : فتوح ، ص ٤٣٦ .

(١٣٨) المصدر نفسه ، ص ٤٣٦ .

(١٣٩) محمد باسل طه : التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .

(١٤٠) الربيع ، نفسه ، ص ٧٤ - ٧٩ ؛ البلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص ١١٥ - ١١٦ ، ١٦٤ - ١٦٥ .

من أموالهم على شراء المواد الاستهلاكية والكمالية ، الأمر الذي أدى الى حركة إقتصادية نشطة وسيولة نقدية كبيرة ، وبما ساهمت في إرتفاع الأسعار[١٤١] .

ويبدو أن التباين الكبير في الدخل الذي نشأ عن نظام التفضيل في العطاء أوجد نوعاً من الخلل في التوازن الأقتصادي في المجتمع ... ففي الوقت الذي أخذ أصحاب الايرادات العالية وجلهم من قريش يستثمرون أموالهم في التجارة بذكاء ويعملون على مضاعفة ثرواتهم ، فإن أصحاب الدخول المحدودة وهم أغلبية الجند الذين أطلق عليهم وصف الروادف كانوا ينفقون ما يأتيهم من عطاء على معيشتهم ، لذا فقد كان من الطبيعي أن يظهر بينهم التذمر وبخاصة حينما تفتر حركة الفتوحات وتقل أو تتوقف إيراداتهم من الغنائم[١٤٢] . وقد أشارت المصادر الى أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد تنبه في أواخر أيامه الى مخاطر هذه الظاهرة ، فنقلت عنه قوله : «لئن عشت الى هذه الليلة من قابل لألحقن أخرى الناس بأولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء»[١] ، إلاّ ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أغتيل سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م قبل أن يتمكن من العودة الى قاعدة التسوية في العطاء .. وبذلك إستمرت الآثار السلبية لهذه الظاهرة في التوسع حتى أخذت مداها الخطير في أواخر حياة الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) .

٤ – التنظيمات الادارية للدولة :

تعد الادارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) إستمراراً لما وضع الرسول ﷺ وخليفته أبو بكر الصديق (رض) من أسس وتنظيمات في هذا المجال ، الاّ أنه نظراً للفعاليات العسكرية الكبيرة التي حصلت في هذا العهد في ميدان حروب التحرير والفتوحات وما ترتب على ذلك من توسع كبير في مساحة الدولة ، فقد تطلب الأمر ان يقوم الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بتطوير هذا النظام والقيام ببعض الاعمال التي تمكن الدولة من تلبية الاحتياجات الجديدة.

لقد كانت الأسس التي قامت عليها الادارة في الدولة العربية الاسلامية هي :

١. إن السيادة في الدولة والمجتمع هي لله تعالى ، فهو المختص بوضع التشريعات التي ينبغي على المسلمين الالتزام بأحكامها . وقد تمثلت هذه التشريعات بالقرآن الكريم . ومن ثم فقد إقتصر دور الرسول ﷺ والخلفاء من بعده على تنفيذ هذه

(١٤١) نجدان ياسين : تطور الاوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .
(١٤٢) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٥٥ – ٥٦ .

الأحكام والاجتهاد في فهمها أو تفسيرها. وقد أدى توقف نزول الوحي بعد عهد النبوة الى منح الخلفاء وقادة المسلمين مجالاً واسعاً في الاجتهاد وبخاصة في مجال السياسة والادارة العامة (١٤٣).

٢. كان من واجب الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، إدارة الدولة والمجتمع على وفق الأهداف والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم، وقد كان من أبرز الوظائف التي برزت لتحقيق ذلك، أمامة المسلمين في الصلاة في المسجد، وتنظيم السرايا والغزوات للجهاد، وتعيين العمال أو الولاة على المدن التي تدخل في إطار الدولة العربية الاسلامية كمكة والطائف وغيرها لادارة شؤونها، أما المدينة فكان يتولى إدارتها الرسول ﷺ مباشرة والخلفاء من بعده، والامارة على موسم الحج في مكة، وإرسال العمال الى مختلف القبائل والأمصار لأخذ الصدقات، والقضاء بين الناس وحسم المنازعات التي تحصل بينهم من قبل الرسول ﷺ أو أحد الصحابة.

٣. لم يكن ثمة فصل بين الوظائف السياسية والادارية والدينية في عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، كما لم يكن هناك تخصص في وظيفة واحدة، بالاضافة الى أن كثير من هذه الوظائف أو الاعمال لم تكن دائمة، وذلك لأن الادارة في هذه الفترة كانت في مرحلة التكون والنشوء ولم تأخذ شكلها الثابت والمستقر (١٤٤).

لقد إنطلق الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في إدارة الدولة من الأسس المشار إليها آنفاً، وقد إتسمت الادارة في عهده بالسمات الأساس الآتية:

١. كانت المهمة الكبيرة التي إضطلع الخليفة بإنجازها هي مواصلة سياسة التحرير والفتح على جبهات العراق والشام، ومن ثم فقد إضطلع قادة جيوش التحرير بالمهمات الأساس في التحرير والادارة في العراق والشام ومصر وغيرها. وهكذا يصعب الفصل في هذه المرحلة بين مهمات قائد الجيش والعامل أو الوالي. وكثيراً ما كان القائد الاعلى للجيش في المنطقة هو الذي يتولى مسؤولية الادارة كما كان الأمر بالنسبة لعمرو بن العاص في مصر وأبي عبيدة بن الجراح في الشام.

٢. وبالنظر لاضطلاع قادة الجيوش والولاة بالمهمات الكبيرة في مجال الجهاد وحماية الأمن وسيادة أحكام الشريعة، لم يكن لديهم من الوقت ولا من الوسائل ما يساعدهم على مباشرة الامور التفصيلية في إدارة المجتمع، لذا فقد سمحوا للأنظمة القديمة التي

---

(١٤٣) العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص ١٠٣-١٠٨.

(١٤٤) العلي: دراسات في الادارة في الدولة الاسلامية الاولى، بغداد ١٩٨٩ ص ٩٤-٩٩.

كانت سائدة في عهد الساسانيين في العراق وفارس ، والبيزنطية في الشام ومصر أن تعمل في الحدود التي لا تتعارض فيها مع أحكام الإسلام ، كما سمحوا للكتاب والموظفين السابقين بالعمل في الإدارة الإسلامية للاستفادة من خبراتهم في الكتابة وجباية الضرائب وغير ذلك من الأعمال (١٤٥) .

٣. إن الولايات وتقسيمها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) تميزت بعدم الثبات سواء من حيث عددها أو من حيث التغيير المستمر في الولاة الذين تولوها وذلك لأن الدولة قد شهدت في هذا العهد توسعاً كبيراً وتغييرات واسعة ، مما تطلب إجراء تغييرات دائمة في أوضاعها الادارية . ويلاحظ أن الخليفة عمر بن الخطاب كان دائم المراقبة لولاته على الأمصار وكان لا يتردد في عزل الولاة الذين لا يثبتون جدارة في الاضطلاع بواجباتهم الادارية (١٤٦) .

لقد إستطاع الخليفة عمر بن الخطاب في عهده أن ينجز العديد من الأعمال والتغييرات الادارية التي كان لها تأثيرها الواضح على والأوضاع الادارية في الدولة والمجتمع من بعده . وكان من أهم تلك الأعمال بالاضافة الى أعماله العسكرية والمالية التي تحدثنا عنها آنفاً ، وهي تقع ضمن مفهوم الادارة بمفهومها الواسع ، ما يأتي :

أ. تمصير الأمصار:

من أجل تشجيع العرب على السكنى في أراضي البلاد المحررة ، وإيجاد قواعد للجند ينطلقون منها للجهاد ، فقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بتمصير كل من البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر على أطراف الصحراء بحيث لا يفصلها عن أرض الجزيرة العربية حاجز من ماء . وقد عبّر الخليفة عمر بن الخطاب عن هذه الأهداف حين كتب الى سعد بن أبي وقاص يأمره بإختيار موقع لتخطيط مدينة الكوفة فقال : « إتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد ، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً » (١٤٧) .

---

(١٤٥) باسل طه جاسم : التنظيمات الادارية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ص ١٠٠ - ١٩١ ؛ العلي : دراسات في الادارة ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(١٤٦) المرجع نفسه ، ص ١٩٠ .

(١٤٧) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٥٧٩ .

وهكذا تم تخطيط موضع مدينة البصرة سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م، فأمر عتبة ابن غزوان «بخط مسجد البصرة الأعظم وبناه بالقصب»[١٤٨]، كما قام سعد بن أبي وقاص في سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م باختيار موضع الكوفة «فاختطها، وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها»[١٤٩]. أما عمرو بن العاص فإنه قد قام بعد فتح مصر باختيار موضع مدينة الفسطاط (القاهرة حالياً)، ربما بحدود سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م، حيث بنى فيها مسجده، ودار الامارة، واختط الناس من حولها منازلهم[١٥٠].

ويلاحظ أن هذه الأمصار كانت في بدايتها أشبه بالمعسكرات التي يعيش فيها الجند، ولم تكن فيها أبنية ومنشآت على النحو الذي إتخذته فيما بعد، وإنما كان جلّ ما فيها مجموعة من الخيام التي أقامها أصحابها بصورة مؤقتة. يقول البلاذري عن تخطيط مدينة البصرة «وضربوا بها الخيام والقباب والفساطيط، ولم يكن لهم بناء»[١٥١].

ب . وضع التقويم الهجري:

لقد أشير الى أنه لم يكن لدى العرب قبل الاسلام تقويم يستندون إليه في تحديد التاريخ، فكانت إذا وقعت واقعة كبيرة إتخذوها أساساً لحساب الأيام من بعدها مثل عام الفيل[١٥٢] وربما عرف أهل اليمن نوعاً من التقويم في كتابة تاريخ الحوادث، فقد روى الطبري أن «أول من أرخ الكتب يعلى بن أمية، وهو باليمن»[١٥٣].

وقد ذكر أن المسلمين أخذوا يؤرخون بعد هجرة الرسول ﷺ الى المدينة إعتباراً من تاريخ قدومه[١٥٤].

غير أن ما تقدم لم يؤد الى وضع تقويم ثابت يعتمد عليه الناس في تدوين الحوادث والأخبار أو تحديد تاريخ الكتب والمراسلات، وقد ترتب على توسع الدولة العربية الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب (رض) وكثرة المراسلات بينه وبين عماله على الأمصار أن ظهرت الحاجة الى مثل هذا التقويم. فقد أورد الطبري رواية تشير الى ان أبا موسى

(١٤٨) ابن خياط: تأريخ، ج ١، ص ٩٨.
(١٤٩) البلاذري: فتوح، ص ٢٧٤.
(١٥٠) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ٩١ - ٩٨.
(١٥١) البلاذري: فتوح، ص ٣٣٦.
(١٥٢) الطبري: تأريخ، ص ٣٩٠ - ٣٩١.
(١٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩١.
(١٥٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

الأشعري كتب الى عمر بن الخطاب : « أنه تأتينا منك كتب ليس لها تاريخ . قال : فجمع عمر الناس للمشورة ، فقال بعضهم أرخ لمبعث رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : أرخ لمهاجر رسول الله ﷺ : فقال عمر : لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ ، فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل »(١٥٥) .

ويلاحظ أن عمر بن الخطاب (رض) حين أمر باتخاذ الهجرة أساساً للتقويم ، لم يجعل بداية التقويم شهر ربيع الأول الذي حصلت فيه هجرة الرسول ﷺ الى المدينة ، بل إتخذ بداية شهر محرم من تلك السنة مبتدأ للتقويم الهجري ، أي أن « إبتداءهم إياه قبل مقدم النبي ﷺ الى المدينة بشهرين وأيام »(١٥٦) ، وذلك لأن « المحرم هو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام »(١٥٧) .

وهكذا وضع عمر بن الخطاب (رض) التقويم الهجري ، وكان ذلك في حدود سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م(١٥٨) ، وهو التقويم الذي إستخدمه المسلمون في تدوين الحوادث والأخبار طوال حقب التاريخ الاسلامي .

ج . تنظيم القضاء :

ان القضاء بوصفه عملا يستهدف حسم الخلافات بين الأفراد كان موجودا منذ عهد الرسول ﷺ ، وكان الرسول ﷺ واصحابه يقضون بين الناس فيما يعرضونه عليهم من خصومات . الاّ ان القضاء في هذه الفترة لم يكن وظيفة مستقلة عن غيرها من الأعمال ، كما انه لم يكن وظيفة دائمة يمارسها اشخاص معينون وفي صيغ تنظيمية محددة(١٥٩) .

وقد استمر وضع القضاء على هذه الحالة في عهد ابي بكر الصديق وصدر من خلافة عمر بن الخطاب (رض) . الاّ ان توسع الدولة وتمصير الأمصار ، وانشغال الولاة في البلدان المحررة بكثير من الأعمال ، قد تطلب تعيين اشخاص يتفرغون لأعمال القضاء في هذه الأمصار . لذا فقد ذكر ابن سعد ان عمر بن الخطاب (رض) كان « اول من

(١٥٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .
(١٥٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ .
(١٥٧) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .
(١٥٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨ .
(١٥٩) مناع تحليل القطان : النظام القضائي في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، « ايام ندوة النظم الاسلامية ، ابوظبي ، ١٩٨٤ ، ج ١ ، ص ٣٥٥ - ٣٦٨ .

استقضى القضاة في الأمصار» (١٦٠). كما ذكر ابن خلدون ان الخلفاء في صدر الاسلام كانوا يباشرون القضاء بأنفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم» وأول من دفعه الى غيره وفوضه عمر (رض) ، فولّى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولّى شريحاً بالبصرة، وولّى أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه احكام القضاة» (١٦١).

ويلاحظ ان عمر بن الخطاب (رض) كان قد جعل امر تعيين القاضي من اختصاصه وحده لأهمية هذا المنصب وصلته بواجبات الخلافة (١٦٢) ، كما أشير الى انه قد خصص للقاضي مرتبا نقاء عمله (١٦٣). وقد أوردت المصادر تفصيلات كثيرة حول القضاة الذين عينهم عمر بن الخطاب في عهده والكتب التي ارسلها اليهم لتوضيح احكام القضاء وسبل تحقيق العدالة ، وقد اثير العديد من التساؤلات والمناقشات حول مدى صحة نسبة هذه الكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في الدراسات الحديثة (١٦٤).

وقد توصلت الدراسات النقدية التي كتبت عن القضاء في عهد عمر بن الخطاب (رض) الى ان القضاء في هذا العهد «لم يكن تنظيما او مؤسسة قضائية وتشريعية واضحة المعالم والأسس ، بقدر ما هي بدايات لارساء مثل هذا التنظيم ، يدلنا على ذلك قيام الخليفة عمر (رض) بجعل القضاء في بعض الولايات والأمصار مستقلا عن سلطة الوالي كما حدث في البصرة والكوفة والشام ومصر، في حين ترك الأمور على حالها في ولايات اخرى كمكة والطائف واليمن والبحرين ، حيث جمع السلطة القضائية وشؤون الولاية بيد العامل او الوالي ، كما تدلنا على ذلك كثرة التغييرات التي كانت تحدث بالنسبة للقضاة الذين تم تعيينهم في المناطق التي تم فيها فصل القضاء عن الولاية. ولكن مما لاشك فيه ايضا ، ان بدايات الخليفة عمر (رض) بجعل القضاء سلطة مستقلة كان له أثره في تكامل وقيام المؤسسة التشريعية التي نمت وتكاملت واصبح لها أسسها وتنظيمها في عهود تالية» (١٦٥).

---

(١٦٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٢٨٢.
(١٦١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٠ – ٢٢١.
(١٦٢) ابن بخياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٢٨ – ١٢٩.
(١٦٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣٥٩.
(١٦٤) جاسم : التنظيمات الادارية في عهد عمر بن الخطاب ، ص ٢١٧ – ٢٤٧.
(١٦٥) المرجع نفسه ، ص ٢٤٠.

٥ – مشكلة الأمن الداخلي واغتيال الخليفة :

ربما كان من المفارقات الغريبة في تاريخ الدولة العربية الاسلامية وتطورها ان تنجح هذه الدولة في هزيمة اكبر امبراطوريتين في العالم ، في الوقت الذي لم تكن قد تنبهت فيه بصورة كافية الى أهمية وضع التنظيمات المناسبة لحماية امنها الداخلي. وتكاد تجمع المصادر التاريخية على انه لم يكن في هذه الدولة جهاز للشرطة او الحرس في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

وقد وردت بعض الارشادات الى ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان يحس بالحاجة الى وجود عسس او حرس لحماية الناس من اللصوص ولكنه لم يستحدث اي جهاز لهذا الغرض ، بل انه كان يقوم بنفسه بالتجوال ليلا لحماية اموال الناس ومصالحهم ، فقد ذكر ابن سعد ان جماعة من التجار قدموا المدينة ، «فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن ابن عوف : هل لك ان تحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما» (١٦٦).

لقد فكر الخليفة عمر بن الخطاب ان يحمي اموال الناس من السرقة بنفسه ، ولكنه لم يدر في خاطره ان شخصه سيتعرض للاغتيال بكل سهولة نتيجة لغياب الحرس والحماية الضرورية لشخص المسؤول الأول عن شؤون المسلمون. فقد اوردت المصادر ان عمر بن الخطاب (رض) بينما كان يؤم المسلمين في صلاة الصبح في المسجد اذ تقدم نحوه عبد فارسي يدعى فيروز ويكنى ابا لؤلؤة ، فطعنه بخنجره عدة طعنات ، أدت الى وفاته بعد ذلك باربعة ايام (١٦٧). فقد أورد الطبري ان عمر بن الخطاب (رض) طعن ، يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة اربع وعشرين. فكانت ولايته عشر سنين وخمسة اشهر واحدى وعشرين ليلة» (١٦٨).

لقد اشارت المصادر الى ان ابا لؤلؤة كان غلاما للمغيرة بن شعبة وانه كان قد جاء الى الخليفة عمر بن الخطاب يشكو سيده لانه كان قد وضع عليه خراجا ثقيلا فسأله الخليفة «وكم خراجك ، قال : درهمان في كل يوم ، قال : وأيش صناعتك؟ قال : نجار،

(١٦٦) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ؛ وانظر : ص ١٨٣.
(١٦٧) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ ، الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٩٢ – ١٩٣.
(١٦٨) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٩٣.

نقاش ، حداد ، قال : ما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال »[١٦٩] ، فحقد على عمر (رض) ، ثم قام باغتياله .

والحقيقة ان هذا السبب لايبدو سببا كافيا للاقدام على هذه الجريمة الشنعاء ولابد انه كان هناك من الأسباب القوية مادفع الى مثل هذه الفعلة[١٧٠] .

ويبدو ان عمر بن الخطاب (رض) نفسه كان يتسأل عن حقيقة الدوافع . فقد اشار الطبري الى ان للمهاجرين والأنصار حينما دخلوا للسلام عليه بعد اصابته جعل يقول لهم : « اعن ملأ منكم كان هذا؟ فيقولون : معاذ الله »[١٧١] . كما ذكر ابن سعد ان عمر (رض) قال لابن عباس اخرج الى الناس من المهاجرين والأنصار فسلهم : « عن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني؟ قال : فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم : لا والله ، ولوددنا الله زاد في عمرك من اعمارنا »[١٧٢] .

وهكذا توفي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) دون ان يماط اللثام عن السر الحقيقي والسبب المقنع الذي كان يقف وراء عملية اغتياله ، مما يفسح المجال امام المؤرخين للبحث وتخمين الأسباب والدوافع[١٧٣] .

٦ – تنظيم مسألة انتقال الخلافة (الشورى) :

تشير المصادر التاريخية الى ان عمر بن الخطاب (رض) كان واسع العمل بقاعدة الشورى في الحكم التي قررها القرآن الكريم ، اذ لانكاد نجد قرارا خطيرا اتخذه الا وقد مهد له باستشارة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار[١٧٤] ، فكان من الطبيعي ان يستنجد بهذه القاعدة الهامة من قواعد الحكم الاسلامي وهو يفكر بامر تنظيم انتخاب من يخلفه في رئاسة الدولة .

وقد أورد الطبري وابن سعد روايات تذكر ان المسلمين دخلوا على الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعد ان طعنه ابو لؤلؤة تلك الطعنات القاتلة ، فسألوه ان يعهد لأحد

---

(١٦٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(١٧٠) يضون ، د. ابراهيم : ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٠٠ – ١٠٢ .

(١٧١) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(١٧٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ .

(١٧٣) يضون : ملامح التيارات السياسية ، ص ١٠٠ – ١٠٢ .

(١٧٤) ابو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٢٤ – ٢٧ .

بعده بالخلافة ، فبدت عليه الحيرة لأن فكره لم يكن قد استقر على استخلاف أحد (١٧٥) ، ثم اجابهم : «ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وان اترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه» (١٧٦) . ثم قرر بعد ذلك ان يجعل الأمر شورى بين ستة من كبار المهاجرين كان رسول الله ﷺ قد توفي وهو عنهم راض ، وهم رؤساء الناس وقادتهم ، حسب قول عمر (رض) لهم ، وكان هؤلاء الستة هم : علي بن ابي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله (١٧٧) .

وتشير رواية الطبري الى ان هذا القرار كان قد اتخذه وهو على فراش الموت ، وهو أمر يدعو للتساؤل ، اذ كيف تسنى للخليفة ان يتخذ مثل هذا القرار الخطير وهو على تلك الحالة التي لايستطيع الانسان فيها عادة ان يفكر بهدوء وروية .

غير ان ابن سعد يورد رواية تشير الى ان الخليفة كان قد رأى رؤيا أولها ان اجله قد دنا ، فقال : «ان أقواما يامرونني أن استخلف ، وان الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته ، والذي بعث به نبيه ﷺ ، فان عجل بي امر فالخلافة شورى بين هؤلاء الرهط الستة الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض» (١٧٨) . ان هذه الرواية تؤكد ان عمر (رض) كان قد فكر بأمر الخلافة قبل اصابته ، وانه قد قرر ان يترك هذا الأمر لهؤلاء الصحابة الستة لأنهم رؤساء الناس وقادتهم ، وان رسول الله ﷺ قد توفي وهو راض عنهم . ومن ثم فان عمر (رض) لم يرد ان يتحمل مسؤولية الخلافة حيا وميتا ، وبذلك لايعد تركه امر الخلافة لهؤلاء الصحابة استخلافا لأحد ، لذا فقد روى عنه انه قال قبل وفاته : «ولم استخلف بعدي أحدا» (١٧٩) .

ويبدو ان الذي حمل عمر بن الخطاب (رض) على اتخاذ هذا الموقف ، انه كان قد فكر في مسألة الخلافة طويلا ، وانه قد وازن بين جوانب القوة والضعف في شخصية كل واحد من هؤلاء الصحابة الستة ، فلم يستقر فكره على أحدهم ، وقد وصلتنا رواية عن المأزق الذي كان يعيش فيه عمر بن الخطاب (رض) تجاه هذه المسألة . يقول ابن

(١٧٥) الطبري : تأريخ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .
(١٧٦) الطبري : تأريخ ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .
(١٧٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .
(١٧٨) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .
(١٧٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

عباس : «وجدت عمر ذات يوم مكروبا ، فقال ما أدري ما أصنع في هذا الأمر؟ اقوم فيه وأقعد؟ ....» (١٨٠) . وربما كانت المسألة التي كانت تقلق الخليفة تتعدى مجرد الموازنة والأختيار بين الرجال المحتمل تولي احدهم للخلافة ، الى التفكير بالتحولات الكبيرة التي بدأت تواجهها الدولة العربية الاسلامية ، والتيارات السياسية والاجتماعية التي بدأت تظهر بوادرها في المجتمع ، وتحاول ان توجه الحياة العامة على وفق مصالحها المتضاربة في كثير من الأحيان (١٨١) . وهكذا جاء قرار عمر (رض) بأن يترك مسؤولية الخلافة الى هؤلاء الرجال الستة بعد وفاته ، بعد ان تحمل مسؤوليتها في حياته حتى اتعبته وأشجته .

لقد اشارت بعض الروايات الى ان أحد الرجال اقترح على الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان يرشح ابنه عبدالله للخلافة ، فأجابه غاضبا : «قاتلك الله ، والله ماأردت الله بهذا ، .... لا ارب لنا في اموركم ، ماحمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، وان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شراً فشرعنا آل عمر ، بحسب آل عمر ، ان يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وان نجوت كفافاً لاوزر ولا اجراني لسعيد» (١٨٢) .

وتذهب المصادر الى ان عمر (رض) قد اجتمع بخمسة من اهل الشورى لأن طلحة ابن عبيد الله كان في سفر ، وأنه قال لهم : «اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس» (١٨٣) ، ثم حدد لهم طريقة الانتخاب بقوله : «فاذا مت فتشاوروا ثلاثة ايام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع الاّ وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبدالله بن عمر مشيرا ولاشيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فان قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وان مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فأقضوا أمركم» (١٨٤) .

وقد ذكر ان عمر بن الخطاب (رض) قال لأبي طلحة الانصاري : «ياأبا طلحة ان الله طالما أعز الاسلام بكم ، فاختر خمسين رجلا من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم» (١٨٥) .

---

(١٨٠) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١١ – ١٢ .
(١٨١) شعبان : صدر الاسلام والدولة الاموية ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٧١ – ٧٢ .
(١٨٢) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .
(١٨٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .
(١٨٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .
(١٨٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

ويلاحظ في هذا المجال ان جميع الستة الذين ترك اليهم عمر بن الخطاب (رض) امر اختيار الخليفة من بينهم كانوا من قبيلة قريش ، مما يدل على تفرد افراد هذه القبيلة بالسلطة السياسية وتضاؤل دور الأنصار. كما لم يظهر في هذا الشأن أثر ملموس لبقية القبائل العربية او زعماء الأمصار.

ومهما يكن من أمر، فقد اجتمع أهل الشورى عدا طلحة ، بعد وفاة عمر بن الخطاب (رض) ليختاروا من بينهم المرشح للخلافة ، «فتنافس القوم وكثر بينهم الكلام» (١٨٦) ، فعرض عليهم عبد الرحمن بن عوف ان يخرج نفسه من المنافسة على الخلافة وان يخولوه صلاحية اختيار احدهم لمبايعته على تولي منصب الخلافة ، فوافقوا على ذلك (١٨٧) . فقام عند ذلك بالاجتماع مع كل واحد منهم على حدة ، فخلا بعلي بن ابي طالب (رض) فقال له : «انك تقول اني احق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن اثرك في الدين ، ولم تبعد ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال : عثمان . وخلا بعثمان فقال : تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، لي سابقة وفضل ، لم تبعد فلن يصرف هذا الامر عني ، ولكن لو لم تحضر، فأي هؤلاء الرهط تراه احق به ، قال : علي . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به عليا وعثمان ، فقال : عثمان ، ثم خلا بسعد فكلمه فقال : عثمان» (١٨٨) .

يتضح مما تقدم ، أن اهل الشورى كانو مجمعين على اختيار عثمان (رض) لمنصب الخلافة ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي عبد الرحمن بن عوف ثلاثة ايام «يلقى اصحاب رسول الله ﷺ ، ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل الا أمره بعثمان» (١٨٩) ، مما يدل على ان امر انتخاب الخليفة كان شأنا من شؤون الأمة ، وأن دور أهل الشورى كان مسألة تنظيمية هدفها ترشيح من تتوافر فيهم الشروط اللازمة للخلافة .

لقد توصل عبد الرحمن بن عوف (رض) من خلال مشاوراته التي استمرت ثلاثة ايام الى ان الرأي العام يميل الى اختيار عثمان بن عفان (رض) لمنصب الخلافة ، الا ان

(١٨٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .
(١٨٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .
(١٨٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .
(١٨٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ .

ذلك لم يدفعه الى اتخاذ قرار قبل الدخول في حوار مباشر مع علي بن ابي طالب (رض) وعثمان بن عفان (رض) حول السياسة التي يزمع كل منهما السير عليها في حالة توليه الخلافة. ولدى اجتماعه بهما قال: «اني قد سألت عنكما وعن غيركما فلم أجد الناس يعدلون بكما، هل انت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل ابي بكر وعمر؟ فقال: اللّهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي. فالتفت الى عثمان، فقال: هل انت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه وفعل ابي بكر وعمر؟ قال: اللّهم نعم» (١٩٠)، فأشار اليهما ان يتبعاه الى المسجد لاعلان ماتوصل اليه بشأن من يقدمه لمبايعته بالخلافة.

وفي المسجد، وبحضور أهل السابقة والفضل من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد المتواجدين في المدينة، أعلن عبدالرحمن بن عوف (رض) مبايعته لعثمان بن عفان (رض) بالخلافة، وحث الناس على مبايعته، فبايعه جميع من حضر المسجد، وكان منهم علي بن ابي طالب (رض) (١٩١)، حتى لقد ذكرت احدى الروايات ان عليا كان ثاني من بايعه بعد عبدالرحمن بن عوف (١٩٢).

لقد أشير الى ان طلحة بن عبيدالله قدم من سفره في اليوم الذي بويع فيه عثمان، فقيل له: بايع عثمان. فقال: أكل قريش راض به؟ فقالوا: نعم... قال: قد رضيت، لا أرغب عما قد اجمعوا عليه، وبايعه. (١٩٣).

وهكذا تولى عثمان بن عفان الخلافة، وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر محرم سنة ٢٤ هـ / ٦٤٤ م، حسب أرجح الروايات. (١٩٤).

---

(١٩٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٨.
(١٩١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٨.
(١٩٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٦٢.
(١٩٣) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
(١٩٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٣ - ١٩٤.

الفصل الثالث

الخلافة الراشدة
في عهد عثمان بن عفان (رض)

أولا : توليه الخلافة :

كان عمر الخليفة عثمان بن عفان (رض) حين بويع بالخلافة في محرم من سنة ٢٤ هـ / ٦٤٤ م بحدود السبعين عاما حسب أرجح الروايات[١] . وقد أورد الطبري رواية تشير الى انه لما بايع أهل الشورى عثمان ، «خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله (ﷺ) فخطب الناس ....»[٢] ، فحثهم على الزهد ، والعمل من أجل الفوز برضاء الله تعالى ، وكان مما قاله لهم : «ألا وان الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. اعتبروا بما مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ...»[٣] .

---

(١) ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٥٦ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤١٧ .

(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ .

ويبدو أن مصدر كآبة الخليفة الجديد هو حزنه على مقتل سلفه وشعوره بثقل العبء الذي وضع على كاهله. وعلى الرغم من ذلك، فقد بادر فور توليه الخلافة الى كتابة رسائل الى عماله وولاته والى عامة الناس يحدد فيها المبادئ التي سيسير عليها في ادارة الدولة، وكانت هذه المبادئ تتلخص في الأمور الآتية:

١. جاء في رسالته الى عماله، أن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة لمصالح الأمة، ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباة. لذا فقد حذرهم من أن يكونوا جباة لأنهم ان فعلوا ذلك، انقطع الحياء والأمانة والوفاء[٤].

٢. أوضح الخليفة لعماله أن «أعدل السيرة، أن تنظروا في امور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو والذي تتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»[٥].

٣. وقد أكد الخليفة عثمان (رض) التزامه بسياسة سلفه عمر بن الخطاب (رض) وبخاصة في مجال حروب التحرير والفتوحات فكتب الى أمراء الأجناد يقول لهم: «اما بعد، فانكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنّا، بل كنا عن ملأ منّا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله مابكم...»[٦].

٤. ولم يكتف عثمان (رض) بما تقدم، بل انه وجه كتابا الى عامة الناس يدعوهم فيه الى اليقظة والحذر في التعامل مع المتغيرات التي بدأت تواجه مجتمعهم، والتي قد تهدد وحدتهم بالخطر. فذكر لهم: «فانكم انما بلغتم مابلغتم بالاقتداء والاتباع؛ فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فان أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ اولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فان رسول الله (ﷺ) قال: (الكفر في العجمة)، فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا»[٧].

ان المبادئ والتوجيهات التي تضمنتها رسائل الخليفة الآنفة الذكر، تدل على أنه كان مستوعبا على نحو دقيق للمثل التي قامت عليها الدولة الاسلامية وأنه كان حريصا على

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.
(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.
(٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.
(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.

تطبيقها تطبيقا دقيقا، كما تشير هذه المصادر الى معرفته بنوعية التحديات التي كانت تواجه المجتمع العربي الاسلامي وبخاصة مايتصل منها بكثرة الثروات والاقبال على جمعها، وتأثير الأعراب والأعاجم على بنية المجتمع الاسلامي، ربما بسبب حداثة عهدهم بالاسلام وعدم استيعاب أغلبهم لقيمه ومبادئه.

ثانيا : أعمال الخليفة عثمان بن عفان (رض) :

لقد شرع الخليفة عثمان بن عفان بمباشرة سياسة الدولة بعد اعلانه للمبادئ التي سيسير عليها. وكانت السياسة الخارجية المتصلة بحروب التحرير والفتوحات على رأس اهتماماته لأن سلفيه ابا بكر وعمر كانا قد قطعا شوطا طويلا في هذا المجال، ومن ثم فقد تعين عليه مواصلة الطريق حتى نهايته. وكان من ابرز ماتحقق في عهده في ميادين التحرير والفتح مايأتي :

١- فتح أرمينية :

ان تأمين حدود الدولة العربية الاسلامية الشمالية واضعاف الأمبراطورية البيزنطية التي كانت لاتزال قوية وتواصل غاراتها على الثغور الاسلامية، كان يتطلب فتح بلاد أرمينية والحاقها بأقاليم الدولة العربية الاسلامية. لذا فقد عهد عثمان بن عفان (رض) بعد استخلافه مباشرة الى حبيب بن مسلمة الفهري بأن يتولى فتح أرمينية «فنهض اليها في ستة آلاف ويقال في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة»[٨]، ففاجأهم وتمكن من تحقيق انتصار عليهم، مما اضطرهم الى طلب «الأمان على الجلاء والجزية، فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم»[٩].

ولم يمض على انتصار المسلمين سوى أشهر معدودة حتى بلغت حبيب بن مسلمة أنباء عن استعداد الروم وحلفائهم من الخزر والأرمن لمهاجمة المسلمين في أرمينية، وأنهم قد جمعوا لهم جمعا عظيما لأن أرمينية كانت في ذلك الوقت تابعة للأمبراطورية البيزنطية. فكتب حبيب بن مسلمة الى الخليفة عثمان يطلب منه المدد، فأرسل الى معاوية بن

---

(٨) البلاذري : فتوح، ص ١٠٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

أبي سفيان في الشام وكذلك الى عامله على الكوفة يطلب منها إرسال النجدة لمساعدته ، ففعلا (١٠).

ولاتقدم لنا المصادر وصفا واضحا عن المعارك التي دارت في أرمينية ، ولاكيف تمكن المسلمون من تحقيق النصر واخضاع هذه البلاد الواسعة ، ولكنها تتحدث عن نجاح المسلمين في اخضاع مدن أرمينية الواحدة تلو الأخرى ، وتوقيع عهود الصلح مع المسلمين ، الأمر الذي يدل على ان المسلمين لم يواجهوا مقاومة موحدة وعنيفة فيها. وقد قام عثمان (رض) بتعيين حذيفة بن اليمان واليا على أرمينية ، بعد ان استتب الأمر فيها للمسلمين. (١١)

٢-استكمال فتح بلاد فارس:

كانت الفعاليات الحربية ضد الأمبراطورية الساسانية متواصلة حين تولى الخلافة عثمان بن عفان (رض). لذا كان من الطبيعي أن يوجه ولاته على البصرة والكوفة لمتابعة نشاطاتهم الحربية حتى يتم لهم فتح جميع بلاد فارس. وتتفاوت المصادر التاريخية في ذكر تواريخ وتفاصيل فتح مختلف الأقاليم في هذه البلاد ، ولكنها تكاد تتفق على انه تم في عهده فتح كل من همذان والري ، وسابور ، وأرجان ، ودارابجرد ، وأذربيجان ، وأصبهان ، وأصطخر ، وجرجان ، وخراسان ، وسجستان ، وطبرستان (١٢) ، وأن هذه العمليات قد استغرقت اكثر من نصف فترة ولايته.

لقد ترتب على نجاح هذه الحملات العسكرية ان انهارت الأمبراطورية الساسانية انهيارا كاملا ، وفر يزدجرد آخر ملوك هذه الأمبراطورية من أمام جيوش المسلمين من أقليم الى الى آخر حتى قتل في حدود سنة ٣١ هـ/٦٥١ م في خراسان على يد أحد اتباعه (١٣). وبذلك انتهت مقاومة الفرس للدولة العربية الاسلامية وغدت جميع أقاليمها جزءا من دار الاسلام.

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(١١) المصدر نفسه : ص ٢٠١ - ٢٠٧.

(١٢) المصدر نفسه : ص ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٧٠ ، ٣٨٥ ، ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٣١ - ١٤٤ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ ، ٢٦٣ ، ٢٩٦ - ٢٧١ ، ٢٨٦ - ٢٨٧.

(١٣) البلاذري : فتوح ، ص ٣١١ - ٣١٣ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٣.

٢- انشاء القوة البحرية ومحاربة الروم في البحر:

كان الروم البيزنطيون يسيطرون على البحر المتوسط ابان حركة الفتوح الاسلامية سيطرة تامة، حتى عرف هذا البحر باسمهم «بحر الروم»[١٤]. وقد مكنتهم هذه السيطرة من مهاجمة سواحل الشام ومصر بصورة مستمرة بعد ان تمكن المسلمون من التغلب عليهم وطردهم من هذه البلاد[١٥].

وقد أدى عدم وجود قوة بحرية لدى المسلمين الى شل قدرة المسلمين على مطاردتهم والقضاء على دولتهم. لذا فقد حاول معاوية بن ابي سفيان ان يقنع الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، بالموافقة على انشاء قوة بحرية لمقاتلة الروم في البحر، الاّ ان الخليفة رفض ذلك لتخوفه من نتائج مثل هذه التجربة التي لم يكن للعرب خبرة مناسبة فيها[١٦]. لذا فقد اكتفى معاوية بتحصين الثغور البحرية وبناء القلاع والحصون الدفاعية فيها، وأخذ يشجع الناس على الاقامة في هذه الثغور وتعلم فنون القتال البحري ذي الطبيعة الدفاعية.[١٧]

وحين تولى عثمان بن عفان (رض) الخلافة تمكن معاوية بن أبي سفيان من اقناعه في الانتقال من حالة الدفاع الى الهجوم وذلك عن طريق تدريب المسلمين على ركوب البحر والقتال فيه. يقول البلاذري: «ان معاوية كتب الى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل، فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها، ولم يأذن له في غزو البحر، وأن معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له في الغزو بحراً، وأمره ان يعد في السواحل اذا غزا أو أغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين، ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، ويبني المساجد، ويكبر ماكان ابتنى منها قبل خلافته»[١٨]. وبذلك أخذ الناس ينتقلون الى السواحل من كل ناحية[١٩]، مما مكّن معاوية من تكوين جيش مناسب لهذا الغرض،

---

(١٤) البلاذري: فتوح، ص ١٥٧.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٣٣ : الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ١١١- ١١٢.
(١٦) الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٢٤٨- ٢٥٣، ج ٣، ص ١١٢.
(١٧) البلاذري: فتوح، ص ١٣٢.
(١٨) المصدر نفسه، ص ١٢٤ - ١٢٥.
(١٩) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

وربما ساعده أهل البلاد المجربة في هذا المجال كثيرا وذلك لخبرتهم الطويلة في صناعة السفن واستخداماتها.[٢٠]

ويبدو ان معاوية لم يجازف في البعد عن السواحل في أول تكوين الأسطول العربي، فاكتفى في البداية بمهاجمة المدن والقلاع الساحلية التي كان يسيطر عليها حلفاء الروم البيزنطيين. فقد أورد البلاذري انه لما استخلف عثمان «وجّه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس، وهي ثلاث مدن مجتمعة فبنى في مرج على أميال منها حصنا سمي حصن سفيان وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصرهم، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم او يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى ماقبله، فوجه اليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلا وهربوا».[٢١]

ولم تمض سنوى اربع سنوات على بدء تكوين الأسطول البحري في الشام حتى وجد المسلمون لديهم الجرأة على تحدي الأسطول البيزنطي في عرض البحر، فكتب معاوية بن ابي سفيان الى الخليفة عثمان بن عفان (رض) يستأذنه في ركوب البحر الى جزيرة قبرص التي كانت تحت سيطرة البيزنطيين، فأذن له بذلك «فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة»[٢٢]، وتمكن من اخضاعها، ومصالحة أهلها على مبلغ من المال يؤدونه الى المسلمين وأن يتخذوا موقفا محايدا في اثناء الحرب بين المسلمين والروم «فكان المسلمون اذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم، ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم»[٢٣].

غير ان أهل قبرص لم يستمروا على الوفاء بعهدهم، فأعانوا الروم في سنة ٣٢ هـ «على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم اياها، فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين في خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة»[٢٤]، مما يدل على مدى تنامي القوة البحرية الاسلامية. وقد عمل معاوية بعد ذلك على تحويل هذه الجزيرة الى قاعدة آمنة للمسلمين، فبعث اليها «باثني عشر الفا، كلهم أهل ديوان، فبنوا لها المساجد، ونقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة»[٢٥].

---

(٢٠) ماجد: التأريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ص ٢٤٣.
(٢١) البلاذري: فتوح، ص ١٣٣.
(٢٢) المصدر نفسه: ص ١٥٧.
(٢٣) المصدر نفسه: ص ١٥٨.
(٢٤) المصدر نفسه: ، ص ١٥٨.
(٢٥) المصدر نفسه: ص ١٥٨.

إن نشاطات المسلمين البحرية وفتوحاتهم في افريقية قد أرعبت الروم البيزنطيين ودفعتهم لمحاولة مواجهة المسلمين في عرض البحر «فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم قط مثله منذ كان الاسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب»[٢٦]، كما يروي الطبري، غير أن ابن عبدالحكم يورد رواية تقدر عدد مراكب الروم بألف مركب[٢٧]. اما عدد مراكب المسلمين، فقد ذكر ابن عبدالحكم ان عبدالله بن سعد بن ابي سرح قد خرج من مصر ومعه مائتا سفينة[٢٨]. ولم تذكر المصادر عدد السفن التي خرج بها معاوية بن ابي سفيان من بلادالشام، غير أن البلاذري كان قد أشار في مجال حديثه عن فتح قبرص في سنة ٣٣ هـ. أن معاوية كان معه خمسمائة سفينة[٢٩]. فمن المحتمل انه قد استخدمها في هذه المواجهة ايضا، وبذلك ربما تكون قوة البحرية الاسلامية التي خاضت المعركة ضد الروم البيزنطيين مؤلفة من سبعمائة سفينة. وقد عرفت المعركة بمعركة ذات الصواري لكثره صواري السفن التي اجتمعت في مكان واحد في اثناء القتال.

لقد أشارت المصادر الى ان هذه المعركة كانت في غاية العنف والشراسة، «ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير، وقتل من الكفار مالايحصى، وصبروا يومئذ صبرا لم يصبروا في موطن قط مثله. ثم انزل الله نصره على اهل الاسلام، وانهزم القسطنطين مدبراً»[٣٠] وبذلك تم للمسلمين النصر في هذه المعركة بصورة حاسمة، مما مهّد الطريق لسيطرة العرب على البحر المتوسط، فأخذوا يمدون نشاطهم الى سواحل ببزنطة وبقية الجزر فيه، مثل صقلية ورودس وغيرها[٣١].

٤ – البدء بتحرير بلاد المغرب العربي (أفريقية):

في حدود سنة ٢٧ هـ[٣٢]، كتب عبدالله بن سعد بن سرح الى الخليفة عثمان بن عفان (رض) يستأذنه في تحرير بلاد المغرب العربي الواقعة غرب ليبيا، وهي تشمل مايعرف الآن بتونس والجزائر والمغرب، وذلك لقربها «من جزر المسلمين»[٣٣]. ويبدو أن

(٢٦) الطبري: تأريخ، ج ٤، ص ٢٩٠.
(٢٧) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٩٠– ١٩١.
(٢٨) المصدر نفسه: ص ١٩٠ –١٩١.
(٢٩) البلاذري: فتوح، ص ١٥٨.
(٣٠) الطبري: تأريخ، ج ٤، ص ٢٩١ : ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٩٠– ١٩١.
(٣١) ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ص ٢٤٥.
(٣٢) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ١٣٤؛ البلاذري: فتوح، ص ٢٧٨.
(٣٣) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٨٣.

ابن سرح كان يشعر بأن هذه البلاد الواقعة تحت النفوذ البيزنطي كانت تشكل تهديداً لحدود الدولة العربية الاسلامية فأراد أن يمد اليها سلطان المسلمين.

وقد قام الخليفة باستشارة من حوله من الصحابة في هذا الأمر، ثم قرر ان يندب الناس للذهاب الى مصر من أجل المشاركة في هذه الحملة. وقد كان الاقبال على التطوع كبيرا فانضم الى هذه الحملة ابناء بعض كبار الصحابة من امثال عبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير، وعبدالله بن عمرو، وعبدالرحمن بن ابي بكر، وغيرهم (٣٤)، حتى بلغ تعداد الجيش الذي قاده ابن سرح عشرين الف مقاتل (٣٥).

ولا تقدم لنا المصادر تفاصيل عن المعارك التي دارت في اثناء تحرير بلاد المغرب الغربي وتكتفي بالاشارة الى انه قد دارت معركة عنيفة بين الجيش الذي يقوده عبدالله بن سعد بن ابي سرح وبين جرجير حاكم أفريقية الذي كان على رأس جيش مؤلف من مائتي الف مقاتل، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل وتفرق اتباعه. وقد كان المكان الذي دارت فيه المعركة يدعى بسبيطلة على سبعين ميلا من القيروان (٣٦).

وقد أشير الى ان «رؤساء أهل افريقية طلبوا الى عبدالله بن سعد ان يأخذ منهم مالا على ان يخرج من بلادهم، فقبل منهم ذلك ورجع الى مصر، ولم يول عليهم أحدا ولم يتخذ بها قيروانا» (٣٧)، اي معسكرا ثابتا.

لقد ساعد الانتصار الذي حققه المسلمون في هذه المعركة والصلح الذي توصلوا اليه مع رؤساء هذه البلاد الى تمهيد الطريق لتوحد جميع بلاد المغرب الغربي مع دار الاسلام في خلال السنوات القليلة التالية.

ولم تقتصر أعمال الخليفة عثمان على متابعة سياسة التحرير والفتح التي قوبلت برضا عام وترحيب قوى من قبل ابناء الأمة وذلك لما جلبته للمسلمين من قوة وعز وثروة، وانما تجاوزت ذلك الى تحقيق بعض الانجازات ذات الطابع الديني والعمراني، وكان من أهمها، جمع الناس على مصحف واحد، وتوسيع المسجد الحرام، والمسجد النبوي.

---

(٣٤) ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ١٣٤، البلاذري: فتوح، ص ٢٢٨.
(٣٥) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٨٤.
(٣٦) ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ١٣٤.
(٣٧) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٨٣، البلاذري: فتوح، ص ٢٢٨.

٥ – جمع الناس على مصحف واحد :

من المعروف أن آيات القرآن الكريم حينما كانت تنزل على الرسول ﷺ كان يحفظها في الحال ، وكان يأمر بعض اصحابه ممن يحسنون الكتابة بكتابتها وحفظها . ولم يكن فن الكتابة والتأليف رائجا في ذلك الوقت ، فكان كتاب الوحي يكتبون آيات القرآن في اللحاف والعسب وأكتاف الابل . لذا فقد كان القرآن في عهد الرسول ﷺ متفرقاً في صحائف متنوعة وفي صدور الرجال (٣٨) .

وقد روى البخاري عن زيد بن ثابت أن أول محاولة لجمع آيات القرآن الكريم في صحف موحدة كانت في خلافة ابي بكر الصديق (رض) . يقول زيد بن ثابت : « أرسل اليّ ابو بكر (رض) مقتل أهل اليمامة – في حروب الردة – فاذا عمر جالس عنده . فقال ابو بكر: ان عمر جاءني فقال : أن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، واني أخشى ان يستحر القتل بالقرّاء في كل المواطن ، فيذهب من القرآن كثير ، واني أرى ان تأمر بجمع القرآن ، فقلت : «وكيف أفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر (رض) . هو والله خير ، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله تعالى صدري للذي شرح له صدر عمر ، ورأيت في ذلك الذي رأى . قال زيد : فقال ابو بكر: انك رجل شاب عاقل لانتهمك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن واجمعه ، قال زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به . فقلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ . فقال ابو بكر: هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر ، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة او ابي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها عند غيره ، وكانت الصحف عند ابي بكر حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند عمر ، حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم » . أخرجه البخاري والترمذي (٣٩) .

وفي خلافة عثمان بن عفان (رض) حينما اتسعت الدولة العربية الاسلامية كثيرا ودخل في الاسلام معظم ابناء القبائل العربية على اختلاف لهجاتهم وانضاف اليهم كثير من الأعاجم على تباين لغاتهم ، ولم يكن الخط العربي قد عرف التنقيط والتشكيل الذي يساعد على حسن القراءة ودقتها ، ظهر الاختلاف بين الناس في قراءة القرآن ، مما قد

(٣٨) ابن الديبع الشيباني : تيسير الوصول الى جامع الأصول ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

يؤدي الى تنازع المسلمين وانقسامهم في أمور دينهم. وقد أشير الى ان أول من تنبه الى خطورة هذه المسألة حذيفة بن اليمان حينما كان يشارك في فتوحات أذربيجان وأرمينية، وربما كان ذلك في حدود سنة ٢٤ هـ/ ٦٦٤م(٤٠).

روى البخاري والترمذي عن الزهري عن أنس بن مالك ان حذيفة بن اليمان «قدم على عثمان (رض) فقال: ياأمير المؤمنين؟ أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها ونردها اليك. فأرسلت بها. فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالله ابن الحارث بن هشام، رضي الله عنهم، فنسخوها، وقال للرهط القرشيين اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف أرسل الى كل أفق بمصحف، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة او مصحف ان يحرق»(٤١).

لقد قوبل عمل عثمان بن عفان (رض) في توحيد صحائف القرآن الكريم في مصحف واحد واحراق ماعداها بالترحيب من جميع صحابة الرسول ﷺ عدا ماروى عن عبدالله بن مسعود، فانه رفض ان يحرق مصحفه لأنه كان شديد الاعتزاز به(٤٢)، «فأكرهه عثمان على رفع مصحفه، ومحا رسومه، فلم تثبت له قراءة ابداً»(٤٣).

ويبدو ان حزم عثمان بن عفان في مسألة توحيد المصاحف على المصحف الذي أعده زيد بن ثابت وصحبه وتحريق ماعداه حتى لوكان ذلك المصحف يعود لصحابي جليل مثل عبدالله بن مسعود يرجع الى ان المصحف الذي جمع من قبل جماعة وبصورة رسمية لابد ان يكون أدق من المصحف الذي جمع استناداً الى جهد فردي. وقد أشير الى أن مصحف ابن مسعود «يختلف في ترتيب الآيات عما امتازت به مصاحف عثمان من الترتيب بحسب العرض الأخير على رسول الله ﷺ بقدر ماأدى اليه اجتهاد الصحابة المؤيد باجماعهم. ويحتمل أن يكون ابن مسعود فاته في مصحفه بعض ماستقصاه زيد بن ثابت وزملاؤه من الآيات التي كانت عند آخرين من قراء الصحابة. زد على ذلك ان ابن مسعود كانت تغلب عليه لهجة قومه من هذيل، والنبي ﷺ رخص لمثل ابن مسعود أن

(٤٠) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٢٤٦ – ٢٤٧، أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٧٥هـ، ص ٦٨.

(٤١) ابن الديبع الشيباني: تيسير الوصول الى جامع الأصول، ج ٤١ ص ٢٠٠ ٢٠١.

(٤٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٤٣) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٧١.

يقرأوا بلهجاتهم ، ولكن ليس لابن مسعود ان يحمل الأمة في زمنه والأزمان بعده على لهجته الخاصة ، فكان من الخير توحيد الأمة على قراءة كتاب ربها باللهجة المضرية التي كان عليها رسول الله ﷺ »(٤٤) .

وعلى الرغم من كل ماتقدم ، فقد حاول الخارجون على خلافة عثمان (رض) عند ماقام به في مجال جمع القرآن وحمل الناس على مصحف واحد من أخطاء عثمان ، فراحوا يشنعون عليه بالقول أنه حرّق المصاحف . وقد أوردت بعض المصادر ان علي بن ابي طالب ردّ على هؤلاء وأمثالهم بالقول : « ايها الناس ، الله الله ، اياكم والغلو في أمر عثمان ، وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ماحرقها الاّ من ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ . جمعنا وقال : ماتقولون في هذه القراءة التي اختلفت الناس فيها : يلقى الرجل الرجل فيقول قراءتي خير من قراءتك . وهذا يجز الى الكفر ، فقلنا بالرأي ، قال : أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد ، فانكم ان اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا ، فقلنا نعم مارأيت ، فأرسل الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص ، قال : يكتب احدكما ويملي الآخر ، فلم يختلفا في شيء ، الاّ في حرف واحد في سورة البقرة ، فقال أحدهما : (التابوت) ، وقال الآخر (التابوه) واختار قراءة زيد بن ثابت لأنه كتب الوحي »(٤٥) .

٦ – توسيع المسجد الحرام والمسجد النبوي :

في سنة ٢٦ هـ قام عثمان بن عفان (رض) بتوسيع المسجد الحرام في مكة(٤٦) ، وقد تطلب ذلك القيام باستملاك بعض الدور المجاورة له ، فوافق قوم على ذلك لقاء تعويض مناسب « وأبى آخرون فهدم عليهم ، ووضع الأثمان في بيت المال ، فصيحوا بعثمان ، فأمر بهم بالحبس ، وقال : أتدرون ما جرأكم عليّ ؟ ما جرأكم عليّ الاّ حلمي ، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به ، ثم كلمه فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد ، فأخرجوا »(٤٧) .

---

(٤٤) محب الدين الخطيب : هامش كتاب العواصم من القواصم ، ص ٧٢ .

(٤٥) الزنجاني ، ابو عبدالله ، تاريخ القرآن ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٦٨ نقلا عما أورده علي بن موسى المعروف بأبي طاووس (٥٨٩ – ٦٦٤ هـ) في كتابه سعد السعود ، وهو من كبار علماء الشيعة .

(٤٦) ابن خياط : تاريخ ، ج ١ ، ص ١٣٤ ؛ الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .

(٤٧) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .

وقد أشير الى ان عثمان زاد في بناء المسجد الحرام ، وأمر بتجديد أنصاب الحرم (٤٨) . ويبدو ان الدافع لذلك التوسع هو ضيق المسجد الحرام بالناس الذين يقصدونه في موسم الحج وفي الأوقات الأخرى نتيجة لتزايد أعداد المسلمين بصورة مطردة .

وفي سنة ٢٩ هـ ، قام عثمان بن عفان (رض) بتوسيع مسجد رسول الله ﷺ في المدينة . وقد ذكر ان القصة وهي الحجارة من الجص كانت تنقل من بطن نخل ، وهو مكان خارج المدينة ، للاستعانة بها في بناء المسجد (٤٩) . وقد ذكر الطبري ان عثمان بن عفان (رض) بني المسجد النبوي « بالحجارة المنقوشة وجعل عمده من حجارة فيها رضاص ، وسقفه ساجا ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه مائة وخمسين ذراعا ، وجعل ابوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب » (٥٠) . وقد ذكر ابن قتيبة ان مسجد المدينة « كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيا بلبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه ابو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر ، ثم غيّره عثمان ، فزاد فيه زيادة كثيرة وبني جداره بالحجارة المنقوشة وبالقصة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج » (٥١) .

ان ماتقدم ، يشير الى وجود مظالم نهضة عمرانية في عهد الخليفة عثمان تستهدف تغيير اسلوب البناء والمواد المستخدمة فيه بصورة تتناسب مع تطور المجتمع وتنامي قوة وثروة الدولة العربية الاسلامية ، ولابد أن تحقيق هذا الهدف قد تطلب الاستعانة بخبرات سكان الأقاليم المحررة في العراق والشام ومصر وغيرها ، ويلاحظ ان التوسع في العمران لم يقتصر على بناء المسجد الحرام والمسجد النبوي بل امتد الى بناء الكثير من المنازل والقصور في المدينة التي تعود ملكيتها الى أهل المدينة وبعض كبار الصحابة (٥٢) . كما ان مساحة المدينة قد اتسعت في هذا العهد حتى وصلت حدود جبل سلع ، مما أثار استياء أبي ذر الغفاري لأنه عد ذلك من مظاهر الترف والخروج على حالة البساطة التي كان عليها المجتمع في العهد النبوي (٥٣) .

---

(٤٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .
(٤٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ .
(٥٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ .
(٥١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢١٣ .
(٥٢) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .
(٥٣) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٨٤ .

ثالثاً: التحولات الاقتصادية والاجتماعية وأزمة الخلافة:

ان موقف ابي ذر الغفاري (رض) من الاقبال على الدنيا وجمع الثروات. والتوسع في العمران يشكّل مؤشراً واضحاً على موقف بعض الصحابة وغيرهم من ابناء القبائل العربية وسكان البلاد المحررة من هذه الظاهرة، والذي هو بمجمله يختلف عن موقف الخليفة وولاته على الأمصار. فقد أورد الطبري ان ابا ذر الغفاري دخل على معاوية بن ابي سفيان في الشام فقال له: «مايدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله قال: يرحمك الله. ياأبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره قال: فلا تقله، قال: فاني لا أقول انه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين»(٥٤).

ولم يكن الخلاف الآنف الذكر في جوهره خلافا حول الألفاظ والمصطلحات، وانما كان يتعداه الى كيفية جمع الأموال والثروات وانفاقها. لذا فقد روي ان ابا ذر الغفاري كان يقول: «يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء مايلقون من الناس»(٥٥). فكتب معاوية الى الخليفة يشكو اليه أمر ابي ذر، فرد عليه بكتاب يقول له فيه: «ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، فلم يبق الاّ أن تثب، فلا تنكأ القرح، وجهز ابا ذر الي، وابعث معه دليلا وزوده، وأرفق به وكفكف الناس ونفسك مااستطعت»(٥٦).

ان ماتقدم يشير الى ان الخليفة عثمان بن عفان (رض) كان قد بدأ يستشعر ابعاد الأزمة وخطورتها على الأوضاع العامة في الدولة المجتمع. لذا فقد أوصى واليه على الشام بأن يرفق بالناس ويحسن معاملتهم.

وحين وصل ابو ذر الى المدينة، ودخل على عثمان (رض) قال له: «يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذربك فأخبره أنه لاينبغي أن يقال: مال الله، ولاينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً. فقال: يا أبا ذر علّي أن أقضي ماعلَيّ، وآخذ ماعلى الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد»(٥٧). غير أن ابا ذر لم يقتنع برأي

(٥٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٣.
(٥٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٢.
(٥٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٣ – ٢٨٤.
(٥٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٤.

الخليفة ، وطلب أن يسمح له باعتزال المجتمع في قرية لاتبعد كثيراً عن المدينة تدعى «الربذة». فسمح له الخليفة بذلك «فخرج حتى نزل الربذة ، فخط بها مسجداً ، واقطعه عثمان صرمة من الابل – أي مابين العشرين والثلاثين من الابل – وأعطاه مملوكين ، وأرسل اليه أن تعاهد المدينة حتى لاترتد اعرابياً ففعل»[٥٨].

وقد مكث ابو ذر معتزلاً الحياة العامة في الربذة حوالي السنتين حتى توفي في سنة ٣٢ هـ. وكان خلافه مع معاوية في الشام وارساله الى المدينة قد بدأ في سنة ٣٠ هـ[٥٩].

ان الأزمة التي عبرت عنها مواقف ابيّ ذر الغفاري (رض) الآنفة الذكر جديرة بالدراسة لمحاولة التعرف على اسبابها البعيدة والقريبة لأنها كانت في حقيقتها أزمة التحولات الكبرى التي بدأت في المجتمع العربي الاسلامي قبل عهد عثمان بن عفان (رض) واستمرت في التفاقم حتى أصبح علاجها في اواخر عهده من المعضلات التي يصعب حلها. فما هي الأسباب الرئيسة التي كانت تقف وراءها[٦٠] :

١. لقد ترتب على تطبيق نظام العطاء على التفضيل منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، حدوث تفاوت كبير في الدخل السنوي يتجاوز العشرة أضعاف بين الشريحة الدنيا من أصحاب العطاء (الروادف) وجلهم من ابناء القبائل العربية التي التحقت بالجهاد بعد معارك القادسية واليرموك ، وبين الشريحة العليا الذين التحقوا بالجهاد قبل ذلك ، مما ولّد تذمراً واضحاً بين أفراد الفئة الأولى وجعلهم يميلون الى حسد الفئة الثانية وانتقاد سياسة الدولة التي كان معظم اصحاب العطاءات العالية من رجالها.
٢. لقد كان كثير من أصحاب العطاءات العالية تجاراً من قبيلة قريش.
لذا فانهم قد استثمروا اموالهم في التجارة ، والمضاربة بالأراضي واستبدالها ، وتملك الأراضي الزراعية واستثمار اموالهم فيها ، مما ساعد على تنامي ثرواتهم بشكل حاد وسريع كما هو الأمر بالنسبة لثروات الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمن

(٥٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٨٤.
(٥٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ ، ٣٠٨.
(٦٠) للتوسع في دراسة هذه المسألة ، يراجع : طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان) ص ٧٩ – ٢٠١ ؛ الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٥٠ – ٥٧ ، فيان يامين : تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين ، ص ٢٤٧ – ٢٩٣.

ابن عوف وسعد بن ابي وقاص وغيرهم[٦١] ـ ابنا الزوادف وغيرهم من أبناء القبائل العربية ذوي العطاءات الواطئة فكانوا ينفقون عطاءهم دون ان تتاح لهم امكانية ادخار قسم منه لاستثماره لضآلته من جهة ولعدم خبرتهم بشؤون التجارة والاستثمار من جهة أخرى.

ولم يجد أفراد هذه الفئة دوافع قوية للتذمر طالما كانت الفتوحات في أوج قوتها، وذلك لأنهم كانوا يحصلون على حصة مناسبة من الغنائم تضاف الى دخلهم من العطاء. غير ان موقفهم بدأ في التغير بعد ان فترت حركة الفتوح ثم مالت للتوقف في اواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض)، مما أدى الى انخفاض مواردهم المالية بشكل حاد، ومن ثم فقد بدأوا يرفعون أصواتهم بالشكوى والتذمر، وافتعال المشكلات. وكانت اكبر مراكز المعارضة والشغب هي الأمصار التي يتجمع فيها هؤلاء المقاتلون وهي الكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط في مصر[٦٢].

لقد كان رجال المعارضة يشعرون ان الأراضي المفتوحة هي غنائم حصلوا عليها بحد سيوفهم، ومن ثم فهم أحق الناس بها وبوارداتها، ومن ثم لم يرتاحوا لقرار الخليفة عمر بن الخطاب بابقاء هذه الأراضي بيد اصحابها على ان يؤدوا الخراج الى الدولة مقابل استثمارهم لها. وكان مما زاد في نقمة هؤلاء أن معظم ايرادات الخراج كانت تذهب الى بيت المال والى جيوب أصحاب العطاءات العالية. فلا غرابة أن نلاحظ ان شرارة (الفتنة) قد انطلقت من مجلس أمير الكوفة لكلمة عابرة قالها تمس هذه المسألة، فقد أورد الطبري في احداث سنة ٣٣ هـ ان سعيد بن العاص، وكان أميراً على الكوفة، قال في مجلسه وهو يسمر مع بعض أهل الكوفة «انما هذا السواد بستان لقريش، فقال الأشتر: أتزعم ان السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك والله مايزيد أوفاكم فيه نصيبا الاّ أن يكون كأحدنا، وتكلم القوم. قال: فقال عبد الرحمن الأسدي ـ وكان على شرطة سعيد ـ أتردون على الأمير مقالته وأغلظ لهم، فقال الأشتر: من هاهنا لايفوتنكم الرجل، فوثبوا عليه فوطأوه وطئاً شديداً، حتى غشي عليه»[٦٣].

٣. ان الموقف الحاد الذي عبّر عنه بعض الزعماء القبليين من أهل الكوفة، ربما كان يعبر عن ضيق ابناء القبائل العربية التي استوطنت في الأمصار من نفوذ قريش المالي

---

(٦١) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

(٦٢) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٢٧٩، ص ٢٨١.

(٦٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٣.

والسياسي. وقد عبّروا عن شعورهم هذا بشكل صريح في حوارهم مع معاوية بن ابي سفيان حين نفاهم الخليفة عثمان بن عفان من الكوفة الى بلاد الشام. فقد أورد الطبري ان معاوية قال لهم لقد «بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وان قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم، وان أمتكم لكم الى اليوم جنّة فلا تشذو عن جنّتكم ...»(٦٤)، فأجابه أحدهم بقوله: «أما ما ذكرت من قريش، فانها لم تكن اكثر العرب ولا أمنعها فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة، الجنة اذا اخترقت خلص الينا»(٦٥).

٤. إن تطور الأحداث والمواقف يشير الى ان زعماء المعارضة في الأمصار، ربما أدركوا أنه ليس من مصلحتهم ان يدخلوا في صراع مع قبيلة قريش على نحو مكشوف لأن ذلك سيدفع رجالها الى الالتفاف حول الخلافة والدفاع عنها.

لذا فانهم فضّلوا ان يركزوا هجومهم على ولاة الخليفة في الأمصار، وانتقاد الخليفة على سياسته الادارية والمالية من أجل عزله عن مؤيديه وبخاصة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين يتمتعون بنفوذ قوي بين ابناء الأمة.

وهكذا أخذت المعارضة تظهر بمظهر الحريص على مصالح الأمة والمدافع عن مثلها العليا. من خلال صياغة الانتقادات الموجهة الى عثمان (رض) وعماله على نحو الذي يصورهم بصورة المنحرفين والخارجين على سياسة العدل والمساواة التي أمر بها الاسلام.(٦٦) وقد لخّص ابن سعد الموقف من عثمان (رض) والمآخذ التي وجهت اليه، وكلها أمور فيها نظر، في النص الآتي: «لما ولي عثمان عاش اثنتي عشر سنة أميرا يعمل ست سنين لاينقم الناس عليه شيئا، وانه لأحب الى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمر كان شديدا عليهم، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم، ثم توانى في امرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر، وكتب لمروان بخمس مصر، وأعطى أقرباءه المال، وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها، واتخذ الأموال، واستسلف من بيت المال، وقال: ان ابا بكر وعمر تركا من ذلك ماهو لها واني أخذته فقسمته في أقربائي، فأنكر الناس عليه ذلك»(٦٧).

---

(٦٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٩.

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٩.

(٦٦) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٤١- ٣٤٢.

(٦٧) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٦٤.

ان دراسة النص الآنف الذكر على ضوء الوقائع التاريخية تقود الى تثبيت التحفظات الآتية حوله:

١- يتسم هذا النص بالعمومية وعدم التحديد الدقيق للوقائع والأخبار فهو يتهم عثمان بأنه قد استعمل اقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر من حكمه (من سنة ٣٠ - ٣٥ هـ). في حين تؤكد المصادر التاريخية خلاف ذلك، فهو قد أقر معاوية بن ابي سفيان على ولاية الشام منذ توليه الخلافة، لأن معاوية كان واليا عليها منذ عهد عمر بن الخطاب (رض) [٦٨]. وعيّن الوليد بن عقبة على الكوفة في سنة ٢٥ هـ [٦٩]، وحين عزله سنة ٣٠ هـ عيّن خلفا له على الكوفة سعيد بن العاص [٧٠]. وفي سنة ٢٩ هـ عيّن عبدالله بن عامر على البصرة [٧١]، اما عبدالله بن سعد بن ابي سرح فقد عيّنه على ولاية مصر بدلا عن عمرو بن العاص سنة ٢٧ هـ [٧٢]. ويلاحظ ان العديد من هؤلاء الولاة مثل معاوية بن ابي سفيان والوليد بن عقبة، وعبدالله بن سعد بن ابي سرح قد عملوا في الادارة منذ عهد عمر بن الخطاب (رض) [٧٣]، مما يشير الى ان اعتماد عثمان (رض) عليهم كان راجعا الى كفاءتهم الادارية لا الى اقرابتهم له، وأن كل ذلك قد تم في النصف الأول من خلافته لا النصف الثاني.

٢- لم يكن جميع ولاة عثمان من أقربائه، فقد ذكر الطبري انه حين قتل عثمان كان واليه على مكة عبدالله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن منيه، وعلى الجند عبدالله بن ابي ربيعة، هذا فضلا عن ان معظم عماله على الخراج والجند والقضاء لم تكن له صلة قرابة بهم [٧٤].

٣- ورد في النص الذي أورده ابن سعد ان عثمان كتب لمروان بخمس غنائم أفريقية، وذلك غير صحيح، والصحيح انه كان قد وعد عبدالله بن سعد بن ابي سرح أن يعطيه خمس خمس غنائم أفريقية ان أفلح في فتحها... فلما تم له ذلك، وأراد الوفاء له بوعده احتج الجند على ذلك فتوقف عن اعطائه ذلك [٧٥].

---

(٦٨) الطبري: تأريخ، ج ٤، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.
(٦٩) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٥٢.
(٧٠) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٧١ - ٢٧٩.
(٧١) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٦٤.
(٧٢) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٥٣ - ٢٥٦.
(٧٣) المصدر نفسه: ج ٤ ص ٢٨٩، ٢٥٢، ٢٥٣.
(٧٤) المصدر نفسه ج ٤، ص ٤٧١ - ٤٧٢.
(٧٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

٤ – اما عن مسألة اعطاء أقاربه الأموال فقد أورد الطبري جواب الخليفة عثمان (رض) على ذلك امام ناقديه فقال: «وقالوا: اني أهب أهل بيتي وأعطيهم، فاما حبي فانه لم يحل معهم على جور، بل أجمل الحقوق عليهم، وأما عطاؤهم فان ماأعطيهم من مالي، ولااستحل اموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفخين أتيت على أسنان أهل بيتي، وفني عمري، وودعت الذي لي في أهلي، قال الملحدون ماقالوا واني والله ماحملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم، وماقدم عليّ الا الأخماس، ولايحل لي منها شيء، فولي المسلمون وضعها في اهلها دوني، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه، وماأتبلغ منه ماآكل الا مالي»[٧٦].

وان مما يعزز ما ذكره الخليفة عثمان (رض) في هذا المجال ان جميع اصحاب الثروات الكبيرة التي أشارت المصادر الى اسمائهم عدا عثمان نفسه الذي كان غنيا قبل توليه الخلافة، لم يكن بينهم أحد من أقرباء عثمان او ولاته الذين كثر الطعن عليهم، علما بأن اصحاب هذه المصادر لم يكونوا متعاطفين مع عثمان بن عفان (رض) وعامة بني أمية[٧٧].

يظهر مما تقدم، أن معظم الانتقادات التي وجهت الى سياسة الخليفة عثمان بن عفان (رض) الادارية والمالية كانت غير دقيقة، وكان القصد منها اثارة الرأي العام عليه من أجل تحقيق أهداف اصحابها الحقيقية والتي كان من بينها الرغبة في تملك الأراضي المفتوحة بصفتها غنائم للفاتحين، وتغيير نظام العطاء على التفضيل، وازاحة قريش عن السلطة. وان مايؤيد ذلك ماأورده الطبري من «ان الذين لاسابقة لهم ولا قدمة لايبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة في المجالس والرياسة والحظوة، ثم كانوا يعيبون التفضيل، ويجعلونه جفوة، وهم في ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه، لأنه لاحجة لهم والناس عليهم، فكان اذا لحق بهم لاحق من ناشيء او اعرابي او مُتحرِّر استجلى كلامهم، فكانوا في زيادة، وكان الناس في نقصان حتى غلب الشر»[٧٨].

ويبدو ان معاوية بن ابي سفيان كان قد وقف على حقيقة هؤلاء الناس حين تجاور معهم في اثناء قدومهم عليه في الشام فكتب الى الخليفة عثمان بن عفان (رض) يقول:

---

(٧٦) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٤٧– ٣٤٨.

(٧٧) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٦٧– ٣٦٨.

(٧٨) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٢٨١.

«انه قدم عليّ على أقوم ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الاسلام، واضجرهم العدل، لايريدون الله بشيء، ولايتكلمون بحجة، انما همهم الفتنة، وأموال أهل الذمة...»[٧٩]

وقد اشار الطبري الى وجود اصابع خفية كانت تحرك الناقمين على عثمان بن عفان (رض) وتوجه حركتهم، فذكر ان عبدالله بن سبأ، وكان يهوديا من اهل صنعاء، يدعى ابن السوداء، لأن أمه كانت سوداء البشرة، أسلم في عهد الخليفة عثمان، ثم أخذ ينتقل في الحجاز والبصرة والكوفة والشام، داعيا لبعض الأفكار الغريبة[٨٠]، ومحرضا الناس على الخليفة وولاته حتى افلح في انشاء نوع من التنظيم المضاد للدولة «فبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر الى ماعليه، وأيهم، أظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك»[٨١].

ان ماأورده الطبري عن ابن سبأ ربما يساعد على تفسير بعض جوانب الغموض التي احاطت بتحركات المعارضين في مختلف الأمصار وتوجههم في النهاية الى المدينة للقضاء على الخليفة وتمزيق وحدة المسلمين، ولكن التعامل مع قصة ابن سبأ ينبغي ان يتم بحذر لأن اخبارها لم تظهر في المصادر التاريخية قبل ان يوردها الطبري، وهو من مؤرخي القرن الرابع الهجري، كما انه كان من المستحيل على شخص حديث عهد في اعتناق الاسلام ان يقوم بدور خطير في توجيه الاحداث لو لم تكن ثمة عوامل كثيرة مساعدة له في طبيعة الحياة والأوضاع في المجتمع[٨٢]. وعلى الرغم من ذلك فان من المحتمل وجود مثل هذا الشخص، وربما وجود اشخاص آخرين من امثاله، وأنه من الجائز انهم قد استغلوا ظروف الأزمة التي كان يمر بها المجتمع العربي الاسلامي في ذلك الوقت فعملوا على زرع الفتن وتمزيق وحدة المجتمع، وضرب قيادته السياسية.

---

(٧٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢١.
(٨٠) النوبختي: ابو محمد بن الحسن بن موسى: فرق الشيعة، بيروت، (دار الفكر)، بلا، ت، ص ٢٧-٢٨.
(٨١) الطبري: تاريخ، ج ٤، ص ٣٤٠-٣٤١.
(٨٢) طه حسين: الفتنة الكبرى، عثمان، ص ١٣٢-١٣٧.

رابعا : الخروج على الخليفة واستشهاده :

لقد بدأت ازمة الخلافة في الظهور منذ سنة ٣٠هـ ، كما قدمنا ، ثم تواصلت مظاهر الخلاف والمعارضة حتى سنة ٣٤هـ ، حينما بدأت معارضة أهل الكوفة تأخذ طابع التحدي المباشر لسلطة الخليفة ومنع واليه على الكوفة سعيد بن العاص من دخول المدينة لمباشرة سلطاته (٨٣) .

وتشير المصادر الى ان الخليفة عثمان بن عفان (رض) كان قد أحس بخطورة الموقف قبل وقوع هذه الحادثة ، فأرسل الى بعض عماله على الأمصار للحضور الى المدينة ، فحضر كل من معاوية بن ابي سفيان عن الشام ، وعبدالله بن سعد بن ابي سرح عن مصر ، وسعيد بن العاص عن الكوفة ، وعبدالله بن عامر عن البصرة ، وأضاف اليهم عمرو بن العاص . وبعد اجتماعهم اليه عرض عليهم مايضله من شكاوى الناس ومطالبتهم بعزل عماله ، وتبديل سياسته العامة فأوضح له المجتمعون ان اصحاب هذه الشكاوى هم دعاة فتنة وانه لا أساس من الصحة لما يدعون . ثم انتقل المجتمعون الى التفكير بما يمكن عمله لمعالجة الموقف وسد سبل النقد والخلاف (٨٤) . وقد عرض كل من الحاضرين حلا للأزمة :

١ . فذكر عبدالله بن عامر ان سبب الأزمة هو فتور حركة الجهاد والفتح ، مما ترك للناس فراغا من الوقت يقضونه في مراقبة ولاتهم والشغب عليهم . لذا فانه قد قال للخليفة : «رأي لك يا أمير المؤمنين ان تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وان تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا يكون همة احدهم الا نفسه...» (٨٥) .

٢ . اما سعيد بن العاص ، فانه قد رأى ان لين الخليفة وتسامحه مع المعارضين هو السبب الرئيس للأزمة ، لذا فانه قد قال للخليفة : «ان كنت ترى رأينا فاحسم عنك الداء ، واقطع عنك الذي تخاف منه ، وأعمل برأيي تصب . قال : وما هو؟ قال : ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ، ولا يجتمع لهم أمر» (٨٦) .

---

(٨٣) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ .
(٨٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ ، ٣٤٢ .
(٨٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ .
(٨٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

وذهب عبد الله بن سعد الى ضرورة تألف قلوب الناس بالمال والعطاء، فقال: «ارى يا أمير المؤمنين ان الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم» (٨٧).

اما معاوية فيبدو انه كان يرى ضرورة منح كل وال مايحتاجه من الصلاحيات الادارية لبسط الهدوء والاستقرار على ولايته. لذا فانه قال: «ارى يا أمير المؤمنين ان ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وانا ضامن لك قبلي» (٨٨).

لقد اورد الطبري رواية تشير الى ان الخليفة عثمان (رض) قد حاول التوفيق بين جميع هذه المقترحات، فأمر عماله: «بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث، وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه، ويحتاجون اليه» (٨٩).

غير ان الطبري لايلبث ان يقدم لنا رواية اخرى تشير الى ان عثمان بن عفان (رض) لم يأخذ بأي من هذه المقترحات ربما لأنها لم تكن تتفق مع جوهر سياسته، ولا تلائم طبيعة الظروف التي كانت تمر بها الدولة في ذلك الحين. لذا فانه قد خاطبهم بقوله: «كل ما أشرتم به علّي قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه، ان هذا الامر الذي يخاف على هذه الامة كائن، وان بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به، اللين والمؤاتاة والمتابعة، الاّ في حدود الله تعالى ذكره...» (٩٠).

وهكذا نلاحظ ان الخليفة عثمان بن عفان (رض) قد قرر بعد طول المشاورة ان يسلك طريق «اللين والمؤاتاة والمتابعة» في مواجهة ناقديه وخصومه، عسى ان يكسبهم الى صفه ويحفظ وحدة المسلمين عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة بدل الاحتكام الى القوة والسيف في حل الخلافات وحسمها. فهل قدّر معارضوه له هذا الموقف؟

لقد وضعت هذه السياسة موضع الاختبار بعد هذا التاريخ مباشرة. فانه ماكاد الاجتماع ينفض ويتوجه ولاة عثمان الى امصارهم، حتى خرج من الكوفة حوالي الف رجل على رأسهم الأشتر النخعي وعسكروا عند موضع يدعى الجرعة. فلما وصل اليهم سعيد ابن العاص اعترضوا طريقه ومنعوه من دخول الكوفة (٩١) فعاد الى المدينة فأخبر الخليفة

(٨٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٤.
(٨٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٤.
(٨٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢٥.
(٩٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٣.
(٩١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

الخبر ، فقال : «مايريدون ؟ اخلعوا يدا من طاعة ؟ قال : اظهروا انهم يريدون البدل . قال : فمن يريدون ؟ قال : ابا موسى ، قال : قد اثبتنا ابا موسى عليهم ، والله لانجعل لأحد عذراً ولاانترك لهم حجة ، ولنصبرن كما امرنا حتى نبلغ مايريدون» (٩٢) .

لقد كان حريا بأهل الكوفة ان يهدأوا ويسلموا أمورهم لواليهم الجديد لو أن مصدر معارضتهم كان مجرد الشكوى من واليهم السابق . الاّ ان اهدافهم كانت تتجاوز ذلك بكثير . لذا فانهم واصلوا اتصالاتهم بالمعارضة من اهل البصرة ومصر ، واتفقوا على ان يتجهوا الى المدينة في موسم الحج للعمل على خلع الخليفة فان ابى التنازل عن الخلافة فيقومون بقتله (٩٣) .

وقد ذكر الطبري انه لما كان شهر شوال من سنة ٣٥ هـ خرج مابين ستمائة الى الف رجل من اهل مصر ، وخرج مثلهم من اهل الكوفة ، ومثلهم من اهل البصرة ، وكلهم يريدون المدينة لتحقيق اهدافهم المشار اليها آنفاً (٩٤) . غير ان ابن سعد يذكر ان عدد اهل الكوفة كان مائة رجل وعدد اهل البصرة مائة رجل . اما عدد اهل مصر فكان ستمائة رجل ، وبذلك يكون عدد الخارجين على عثمان من الأمصار الثلاثة حوالي التسعمائة رجل (٩٥) .

لقد عسكر الخارجون على عثمان في البداية خارج المدينة ، ثم بدأوا بارسال الوفود للاتصال بكبار الصحابة من امثال علي بن ابي طالب (رض) والزبير ابن العوام (رض) وطلحة بن عبيدالله (رض) وازواج النبي ﷺ من اجل كسبهم الى صفهم (٩٦) . ويبدو ان هؤلاء الصحابة قد حاولوا التوسط بينهم وبين الخليفة ، واشارت بعض المصادر الى ان المصريين قد وافقوا على العودة الى مصر بعد ان وعدهم الخليفة بالاستجابة لبعض مطالبهم ، الاّ انهم لم يلبثوا ان عادوا الى المدينة وقاموا باحتلالها مع أهل الكوفة والبصرة بحجة أنهم قد حصلوا في طريق عودتهم على كتاب مع احد الرجال موجه الى والي مصر يأمره فيه الخليفة بمعاقبتهم وقتلهم حال عودتهم . وقد انكر الخليفة عثمان (رض) بصورة قاطعة علمه بمثل هذا الكتاب ، فضلا عن ان يكون قد كتبه مما يدل على ان المسألة كانت مفتعلة (٩٧) .

(٩٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ .
(٩٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .
(٩٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .
(٩٥) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٦٦ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ .
(٩٦) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .
(٩٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، ٣٥٨ - ٣٦٠ .

وهكذا اخذت الأوضاع في المدينة تتدهور نحو الأسوأ يوما بعد يوم ، اذ منع الخليفة من امامة المسلمين في المسجد وحصر في داره ، واخذ الخارجون عليه يطلبون منه التنازل عن الخلافة وهو يرفض ذلك لكيلا يكون ذلك سنة ، كلما اختلف الناس مع ولي امرهم طلبوا منه التنحي عن السلطة (٩٨) ، ويبدو ان موقف الخليفة في هذه المرحلة كان يتسم بالاصرار على التمسك بالشرعية وعدم التنازل مع محاولة اقناع الخارجين عليه بالتخلي عن موقفهم عن طريق المحاججة والمنطق دون اللجوء الى استخدام القوة او الدعوة لاستخدامها (٩٩) .

لقد وضع هذا الموقف أهل المدينة وعلى رأسهم كبار الصحابة في موقف حرج ، اذ لم يكن الخليفة يسمح لهم باستخدام القوة لطرد الخارجين عليه من المدينة وحماية شخصه من عدوانهم ، كما انه لم يرض بالتنازل عن الخلافة استجابة لطلباتهم الملحة . وهكذا فقد اتسم موقف اهل المدينة بالتردد وعدم الحسم في مواجهة هذه المحنة القاسية (١٠٠) .

لقد كان الخليفة الشيخ يأمل ان يؤثر منطقه وكلماته المخلصة في نفوس اناس قد عزموا امرهم على قتله من اجل تحقيق اهدافهم المبيتة ، فتوجه اليهم وهو محصور في داره فقال : «ياقوم لاتقتلوني فاني وال وأخ مسلم ، فوالله ما أردت الاّ الاصلاح ما استطعت اصبت او اخطأت ، والكم ان تقتلوني لاتصلوا جميعا ابدا ، ولاتغزوا جميعا ابدا ، ولايقسم فيؤكم بينكم» (١٠١) .

لقد كان حريا بالخارجين على الخليفة عثمان (رض) ان يتأثروا بكلماته الصادقة الحكيمة . وان يقبلوا منه عروض الحوار لحل المشكلات القائمة حرصا على وحدة الأمة ومستقبلها ، ولكنهم ابوا الاّ الاستجابة لدواعي الحقد والغضب فسفكوا دم خليفة المسلمين عثمان بن عفان (رض) في يوم الجمعة الصادف ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، وكان عمره قد ناهز الـ ٨٢ عاما حسب ارجح الروايات . وبذلك يكون حكم الخليفة عثمان بن عفان (رض) للدولة العربية الاسلامية قد امتد احدى عشرة سنة واحد عشر شهرا واثنين وعشرين يوما (١٠٢) .

---

(٩٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ – ٣٥٤ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٦٦ ، ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ١٤٨ .

(٩٩) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

(١٠٠) ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٥٠ – ١٥٢ .

(١٠١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٦٧ ، ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(١٠٢) الطبري : تأريخ ، ج ٤ ، ص ٤١٥ – ٤١٦ ، ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .

الفصل الرابع

الخلافة الراشدة
في عهد علي بن ابي طالب (رض)

أولا : توليه الخلافة :

ترتب على مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رض) بيد الخارجين عليه من اهل الأمصار ان فقدت الدولة العربية الاسلامية قيادتها الشرعية واصبحت المدينة مركز الخلافة في قبضة رجال الأمصار، فتولى الغافقي بن حرب العكي من ابناء القبائل اليمنية التي نزلت مصر في حروب التحرير، واحد زعماء الخارجين على الخليفة حكم المدينة ، وامامة الناس في الصلاة ، حتى تم اختيار الخليفة الجديد [1] .

وقد اشارت بعض الروايات الى انه قد تم انتخاب علي بن ابي طالب (رض) لمنصب الخلافة في اليوم الثاني من مقتل الخليفة عثمان (رض)[2] ، كما روى عن محمد بن الحنفية انه قال : «كنت أمسي مع ابي حين قتل عثمان (رضي الله عنه) حتى دخل بيته ،

(١) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ ؛ ٣٢٤ ؛ محب الدين الخطيب : هامش كتاب العواصم من القواصم ، ص ١١٢ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص .

فأتاه ناس من اصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا : ان هذا الرجل قد قتل ، ولابد من امام للناس ، قال : او تكون شورى؟ قالوا أنت لنا رضا ، قال : فالمسجد اذاً يكون عن رضا من الناس ، فخرج الى المسجد ، فبايعه من بايعه ، وبايعت الانصار علياً الاّ نفيراً يسيراً »(٣) .

غير ان الطبري يورد روايات اخرى تؤكد ان المدينة قد بقيت عدة ايام بعد مقتل عثمان (رض) من غير خليفة ، فقد جاء في رواية سيف بن عمر ان المدينة بقيت بعد مقتل عثمان (رض) : « خمسة ايام ، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالأمر فلا يجدونه »(٤) .

وقد وضع هذا الموقف الخارجين على عثمان (رض) في حرج شديد ، فكلم بعضهم بعضا وقالوا : « يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد ، فيسمعون بقتله ولايسمعون انه بويع لأحد بعده ، فيثور كل رجل منهم في ناحية ، فلا نأمن ان يكون في ذلك الفساد ، فارجعوا الى علي ، فلا تتركوه حتى يبايع ، فيسير مع قتل عثمان بيعه علي ، فيطمئن الناس ويسكنون »(٥) .

وقد ذكر ان الاشتر النخعي ، وهو مالك بن الحارث من قبيلة النخع اليمنية وكان من زعماء الكوفة قد بذل جهودا كبيرة في اقناع علي بن ابي طالب (رض) لتولي الخلافة « ولم يزل به يكلمه ، ويخوفه الفتنة ، ويذكر له انه ليس احد يشبهه فمد يده فبايعه الاشتر ومن معه »(٦) .

ويبدو أن موافقة علي بن ابي طالب (رض) على تولي الخلافة قد شجعت على دعوة الناس للاجتماع لمبايعته على تولي الخلافة ، فقد اورد الطبري انه لما كان يوم الخميس ، على رأس خمسة ايام من مقتل الخليفة جمع الخارجون على عثمان (رض) اهل المدينة وقالوا لهم : « انتم اهل الشورى ، وانتم تعقدون الامامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبون ونحن لكم تبع ، فقال الجمهور : علي بن ابي طالب نحن به راضون »(٧) فقالوا لهم « دونكم يا أهل المدينة فقد اجلناكم يومين »(٨) . فلما كان يوم الجمعة حضر

---

(٣) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٣٢ .

(٥) ابن قتيبة ، محمد بن عبدالله بن مسلم : الأمامة والسياسة ، مصر ١٩٥٧ ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٧) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ .

(٨) الدينوري : ج ٤ ، ص ٤٣٤ .

الناس المسجد ، «وجاء علي حتى صعد المنبر ، فقال : أيها الناس — عن ملأ واذن — ان هذا امركم ليس لأحد فيه حق الا من امرتم ، وقد افترقنا بالأمس على امر ، فان شئتم قعدت لكم ، والا فلا ايجد على احد ، فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس »[٩] فبايعوه ، وكان من جملة المبايعين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وقد أشير الى أنهما بايعا تحت ضغط واكراه الخارجين على عثمان[١٠] . وبذلك اصبح علي بن ابي طالب (رض) الخليفة الرابع للمسلمين[١١] ، وكان توليه الخلافة في يوم الجمعة المصادف ٢٥ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، اي بعد مقتل عثمان (رض) بأسبوع[١٢] .

ثانيا : سياسته :

يبدو ان علي بن ابي طالب (رض) كان يرى ان الخليفة بحاجة الى قدر واسع من حرية الاجتهاد كي يتمكن من ادارة شؤون الأمة بصورة حسنة . لذا فانه قد أصر على التمسك بحقه في الاجتهاد حينما سأله عبد الرحمن بن عوف بمناسبة انتخاب الخليفة بعد وفاة عمر بن الخطاب (رض) عن مدى استعداده لمبايعته على كتاب الله وسنة رسوله وفعل ابي بكر وعمر ، فقال «اللهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي»[١٣] ، كما كان واضحا وصريحا في تمسكه بهذا النهج حين عرض عليه الناس الخلافة بعد مقتل عثمان (رض) حين قال لهم : «واعلموا ان اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وان تركتموني فانما انا كأحدكم ، الا أني اسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه امركم»[١٤] .

لقد كان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) حريصا على قيادة الامة على وفق المبادئ والمثل التي فهمها من رسالة الاسلام والتي جاهد من اجلها منذ كان صبيا ، ولكن الظروف العاصفة التي تولى فيها الخلافة لم تكن مواتية ولا مساعدة له على تحقيق اهدافه وذلك لأن منصب الخلافة قد فقد كثيرا من هيبته ومكانته المعنوية بعد ان تجرأ بعض اهل الامصار على قتل الخليفة في عقر داره ، كما فقد اهل المدينة من المهاجرين والانصار امتيازهم في ادارة الدولة واختيار الخليفة ، بحكم ماهم من صحبة للرسول ﷺ وجهاد في

(٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ .
(١٠) المصدر نفسه ، ص ٤٣٥ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣١ .
(١١) ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ، ص ٢٦١ .
(١٢) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٣٦ .
(١٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .
(١٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .

سبيل الاسلام ، فجاء اهل الامصار بحكم مالديهم من قوة لمشاركتهم في هذا الامتياز ، وفرض آرائهم وأهوائهم المتضاربة في بعض الاحيان عليهم (١٥) .

وهكذا فقد قدر على الخليفة الرابع ان يعيش مأزق محاولة اقامة نوع من التوازن في سياسته بين المثل والمبادئ التي يؤمن بها وبين ضرورات الواقع الذي يتحكم في توجيه المواقف والأحداث ، واقامة توازن من نوع آخر بين ما استقر من تقاليد حول حق المهاجرين والانصار في ادارة الدولة وبين تطلعات اهل الامصار في المشاركة بهذا الحق ، وبما يتناسب مع قوتهم المتصاعدة ومصالحهم التي تتناقض في كثير من جوانبها مع مصالح المهاجرين من قريش .

وقد عبّر الخليفة علي بن ابي طالب (رض) عن هذا المأزق حينما دخل عليه طلحة والزبير في عدة من الصحابة ليطالبوه بمعاقبة قتلة عثمان (رض) فقالوا : « ياعلي ، انا قد اشترطنا اقامة الحدود ، وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل واحلوا بأنفسهم . فقال لهم : يا اخوتاه ، اني لست اجهل ماتعلمون ، ولكني كيف اصنع بقوم يملكوننا ، ولانملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت اليهم اعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ماشاؤوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا : لا ، قال : فلا واللّه لا أرى الاّ رأيا ترونه ان شاء اللّه ، ان هذا الأمر امر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة ، وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض من اخذ بها ابدا ، ان الناس من هذا الأمر ان حرك على امور : فرقة ترى ماترون ، وفرقة ترى مالاترون ، وفرقة لاترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ، فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا » (١٦) .

وقد أشار صاحب كتاب « الامامة والسياسة الى ان الخليفة عليا قد حاول التعرف على قتلة عثمان على أمل معاقبتهم حينما تسنح الفرصة ، ولكنه لم يصل الى نتيجة واضحة . فقد ذهب الخليفة علي بن ابي طالب (رض) الى زوجة عثمان (رض) فقال لها : « من قتل عثمان؟ قالت : لا أدري ، دخل عليه رجال لا أعرفهم الاّ ان أرى وجوههم ، وكان معهم محمد بن ابي بكر ، فدعا علي محمدا ، فسألة عما ذكرت امرأة عثمان ، فقال محمد :

(١٥) اللاخ ، د. هاشم : الامام علي بن أبي طالب رجل المثل والمبادىء بغداد ، ١٩٨٨ ، ص ٩٥ – ٩٧ .

(١٦) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

صدقت ، قد والله دخلت عليه ، فذكر لي أني ، فقمت عنه وأنا تائب الى الله تعالى ، والله ما قتلته ، ولا أمسكته فقالت صدق »[17] .

يبدو مما تقدم أن طريق التحقيق في مقتل عثمان (رض) لم يكن بالطريق السهل ، اذ ان القتلة لم يكونوا معروفين على وجه التحديد ، وكانوا بمجملهم مندمجين في مجموع الخارجين على الخليفة من أهل الأمصار ، وقد كانوا متضامنين في موقفهم وفي مسؤوليتهم عن مقتل عثمان (رض) . ومن ثم فقد كان التحرك نحو معاقبة قتلة عثمان يعني التحرك باتجاه مقاتلة الخارجين على عثمان (رض) جميعاً سواء منهم المسيطرون على المدينة ام الموجودون في الأمصار من ابناء قبائلهم ومناصريهم[18] .

لقد كان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) يشعر بمرارة عميقة من جراء عجزه عن اتخاذ اجراء سريع لمواجهة الموقف ، وقد عبّر عن هذه المرارة لابنه الحسن حينما أخذ يناقشه فيما ينبغي عمله ، فقال له : « والله ما زلت مقهوراً منذ وليت ، منقوصاً لا أصل الى شيء مما ينبغي .. »[19] .

وربما كانت أولى خطوة على طريق اطلاق يدي الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في ادارة شؤون الدولة هي مغادرة الخارجين على عثمان المدينة والعودة الى امصارهم ، وقد حاول الخليفة علي (رض) تحقيق ذلك ، وبخاصة حينما بلغته شكاوي أهل المدينة وتذمرهم من وجود هؤلاء بينهم ، فتوجه الى الناس قائلاً : « ايها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب ، وقال : يا معشر الأعراب ، الحقوا بمياهكم ، فأبت السبئية — وكانوا على ما يذكر الطبري قادة الخارجين على عثمان — وأطاعهم الأعراب »[20] .

وقد عرض كل من طلحة والزبير والمغيرة بن شعبة خططاً لاجبار الخارجين على عثمان على مغادرة المدينة بالقوة ، فقال طلحة : « دعني فلآت البصرة فلا يفجؤك الاّ وأنا في خيل ، فقال : حتى أنظر في ذلك . وقال الزبير : دعني آت الكوفة ، فلا يفجؤك الاّ وأنا في خيل ، فقال : حتى أنظر في ذلك . وسمع المغيرة بذلك المجلس ، فجاء حتى دخل عليه ، فقال : ان لك حقّ الطاعة والنصيحة ، وأن الرأي اليوم تحرز به ما في غد ، وان

(١٧) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(١٨) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٨٨ — ٤٨٩ .

(١٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥٦ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٣٨ .

ياع اليوم تضيع به ما في غد ، أقر معاوية على عمله ، وأقر ابن عامر على عمله ، وأقر
ل على اعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت او تركت . قال : حتى
ر»(٢١) .

ويبدو ان الخليفة عليا (رض) لم يقتنع بما عرضه عليه كل من طلحة والزبير والمغيرة
ن الأخذ بها كان يعني نشوب حرب أهلية بين الخارجين على عثمان في المدينة وبين
جال الذين سيتم استقدامهم من الأمصار لغرض ازاحة هؤلاء عن المدينة بالقوة . كما
ن ذلك يعني فضلا عما تقدم ضرورة الالتزام بالمواقف والسياسات التي يدعو الى الاخذ بها
ل من طلحة والزبير وعمال عثمان على الأمصار ، وهي بمجملها لا تلتقي مع السياسة التي
زمع الخليفة علي السير بمقتضاها في ادارة شؤون الأمة .

لقد وجد الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بعد طول تأمل ان من الأفضل في هذه
المرحلة تأجيل السعي من أجل معاقبة قتلة عثمان ، ومعالجته بالروية والتسكين حتى تتوافر
الظروف الملائمة لاتخاذ اجراءات أشد «لأن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدّر ،
وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ؛ ولا القبيلة الرجل»(٢٢) .

وربما قدّر الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ان الشروع في تنفيذ سياسة جديدة
تنطلق من مبادئ الزهد التي جاء بها الاسلام وعبّر عن جانب منها ابو ذر الغفاري ضمن
حملته على ولاة عثمان(٢٣) ، قد تساعد على تهدئة الأوضاع في المجتمع وتجتذب اليه عامة
الناس من الذين تأثروا بدعوات الخارجين على عثمان في الخذل والمساواة ومنع
الاستغلال ، فضلا عن ان هذه المبادئ تتفق مع سيرة الخليفة علي بن ابي طالب
(رض) الشخصية والمنطلقات التي كان يؤمن بها والتي دعا عثمان الى الأخذ بها في اثناء
محنته التي قتل فيها(٢٤) .

وكانت أهم المبادئ التي شرع الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في تنفيذها ما
يأتي :

---

(٢١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٢٨ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٨٩ .

(٢٣) علي بن ابي طالب : نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢٤) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

١ – اعادة بعض أراضي الصوافي الى بيت المال :

كان الخليفة عثمان بن عفان (رض) قد تصرف ببعض اراضي الصوافي المملوكة للدولة فأقطعها لبعض الأشخاص ، مما أثار عليه نقمة كثير من الناس[٢٥] ، لذا فقد قام علي ابن ابي طالب (رض) بانتزاع هذه الأملاك التي «كان عثمان أقطعها جماعة من المسلمين»[٢٦] ، واعادها الى بيت المال . ويبدو ان هذا القرار قد أثار بعض الاعتراضات بحجة أن فيه مساسا بحقوق مكتسبة ، فرد الخليفة علي عليها بقوله : «والله لو وجدته قد تزوج به – أي بالأموال المقطعة – النساء وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[٢٧] .

والحقيقة ان المصادر لم توضح لنا عدد الأراضي التي تصرف بها الخليفة عثمان بن عفان (رض) بالاقطاع ،ولم تذكر الأشخاص الذين أقطعت لهم مما يجعل الحكم على مدى تأثير هذه الخطوة التي أقدم عليها الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بعد توليه الخلافة متعذراً ، وربما جاز لنا الافتراض بأن معظم هذه الأراضي قد اقطعت لأفراد من عماله وأقربائه من بني أمية ، لذا فقد شعر هؤلاء لهذا السبب . ولأسباب أخرى أن العهد الجديد يسير باتجاه مناقض لمصالحهم ، لذا فقد أخذوا يتسللون من المدينة الى مكة ، وغيرها من الأماكن على أمل ايجاد الفرصة المناسبة لمقاومة حكم الخليفة علي بن ابي طالب (رض)[٢٨] .

٢ – العدول عن سياسة العطاء على التفضيل :

لقد ترتب على تطبيق سياسة العطاء على التفضيل من السلبيات ما سبقت الاشارة اليه ، والتي دفعت ابناء القبائل العربية في الأمصار وبخاصة الروادف الى المطالبة بتبديلها[٢٩] . ويبدو ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض)كان يرى ان توزيع العطاء على أساس التسوية بين الناس هو الأعدل والأكثر انسجاماً مع سياسة الرسول ﷺ . لذا فقد أعلن عن تخليه عن سياسة العطاء على التفضيل التي طبقت في عهد الخليفتين

(٢٥) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ،ص ٦٤ .

(٢٦) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٢٧) نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٢٨) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

(٢٩) المصنف ، ج ٤ ، ص ٢٨١ .

السابقين ، وشرع في العمل بسياسة العطاء على التسوية . وقد دافع عن هذه السياسة بقوة في وجه من دعوه الى الالتزام بالسياسة السابقة ، ربما من أجل اجتذاب معارضيه والحصول على النصر، فقال : «أتأمروني أن اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه... لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وانما المال مال الله . ألا وان اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ....»(٣٠) .

ان تطبيق سياسة التسوية في العطاء كان يضر بمصالح فئات كثيرة من افراد المجتمع وبخاصة من المهاجرين والأنصار ، ولابد أن ذلك قد أثار استياء الكثير من الرجال ذوي النفوذ والتأثير على الناس ودفعهم لمعارضة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) . ويبدو أنه كان على رأس الذين أظهروا المعارضة للخليفة علي في هذا المجال طلحة والزبير . فقد جاء في كلام للخليفة علي بن ابي طالب وجهه اليهما ما نصه : «وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة — أي التسوية في العطاء — فان ذلك أمر لم احكم أنا فيه برأيي ، ولا وليته هوى مني ، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه ، فلم أحتج اليكما فيما فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه ، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى»(٣١) .

وقد أشارت المصادر الى ان أول فرصة أتيحت للخليفة علي بن ابي طالب (رض) لتطبيق هذا المبدأ كانت عند دخوله البصرة بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ . فقد ذكر الطبري أن عليا لما فرغ من بيعة أهل البصرة «نظر في بيت المال ، فاذا فيه ستمائة الف وزيادة ، فقسمها على من شهد معه الوقعة ، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة»(٣٢) .

ويبدو أن الخليفة علي بن ابي طالب (رض) لم يكن يميل الى ادخار شيء من الأموال التي تأتيه في بيت المال ، ويقوم بتوزيعها على المستحقين في الحال . فقد روى أنه دخل يوما على بيت المال ، فنظر الى ما فيه باستهانة ثم قال : «لا أمسي وفيك درهم ، ثم أمر رجلا من بني أسد فقسمه»(٣٣) .

---

(٣٠) نهج البلاغة ، ج ٢ ، ص ٦ — ٧ .

(٣١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٣٢) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ص ٥٤١ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٤١١ .

(٣٣) ابن سلام : الأموال ، ص ٢٧٠ .

وقد ترتب على ذلك أن قام الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بتوزيع العطاء على الناس اكثر من مرة في السنة . فقد روى أن «عليا أعطى العطاء في سنة ثلاث مرات ، ثم أتاه مال من أصفهان ، فقال : أغدوا الى عطاء رابع ، اني لست لكم بخازن»[٣٤] .

ومن الواضح ان هذا الأسلوب في توزيع العطاء على الناس ان صحت الروايات التي أوردها ابن سلام ينسجم مع النظرة الزهدية والبدوية الى المال ، ولكنه بعيد عن النظرة الاقتصادية التي تأخذ المستقبل بنظر الاعتبار ، فتدخر ما فاض عن حاجة الناس لتوزيعه عليهم حين تشح الايرادات او تتأخر ، ومع ذلك فان المصادر لم تقدم اية تفصيلات عن الوقت والظروف التي تصرف فيها الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بأموال بيت المال بهذه الطريقة . ومن ثم فان بالامكان افتراض ان هذا التصرف في المال في حالة صحته كان حالة خاصة أملتها ظروف معينة .

ويلاحظ انه في الوقت الذي أثارت فيه سياسة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) المالية معارضة الكثيرين من كبار رجالات المهاجرين والأنصار بسبب مساسها بمصالحهم بصورة مباشرة فانها على ما يبدو، لم تحض بالترحيب الكامل من ابناء القبائل العربية المقيمة في الأمصار، وذلك لأن طلباتهم كانت تتجاوز مجرد توزيع العطاء على التسوية الى المطالبة بتوزيع الأراضي المحررة عليهم لأنهم كانوا يعدونها من جملة الغنائم التي حصلوا عليها بسيوفهم كما أوضحنا ذلك آنفاً .

ويبدو أن زعماء هذه القبائل قد مارسوا ضغوطاً على الخليفة علي بن ابي طالب للاستجابة لمطالبهم ، الاّ انه لم يرضخ لها ، لأنه كان من جملة من أشاروا على الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بابقاء هذه الأراضي بيد أصحابها وفرض الخراج عليها . لذا فقد روى عن الخليفة علي بن ابي طالب قوله : «لقد هممت ان أقسم مال هذا السواد ، فيمر أحدكم بالقرية فيتغدى فيها او يتعشى ويقول : قريتي»[٣٥] . غير ان الخليفة عليا (رض) لم يقدم على ذلك لأنه أدرك ان ذلك سيفتح الباب لكثير من المنازعات والفساد ، فروى عنه قوله : «لولا ان تضرب وجوه قوم عن مياههم لقسمت السواد بينهم»[٣٦] .

---

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

وهكذا قدر للخليفة علي بن ابي طالب (رض) ان يمضي في سياسته المالية المعتدلة وسط المصالح المتضاربة لتجار قريش ومن شابههم من جهة ، ورجال القبائل المعتمدين على قوتهم وسيوفهم من جهة أخرى .

٣ – تغيير ولاة الأمصار:

كان من جملة ما أخذه الناس على الخليفة عثمان بن عفان (رض) ووافقهم فيه الخليفة علي بن ابي طالب (رض) اعتماده الكبير في ادارة الأمصار على أقربائه وعجزه عن محاسبتهم وأخذهم بالشدة (٣٧) . فكان من الطبيعي ان يعمد الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بعد ان تولى الخلافة وعزم على السير في سياسة جديدة ان يعزل هؤلاء الولاة ويعين بدلا عنهم ولاة يتمتعون بثقته الكاملة ويستوعبون ابعاد سياسته في ادارة شؤون الأمة .

فقد ذكر الطبري انه لما دخلت سنة ٣٦ هـ ، اي بعد تولي الخليفة علي بن ابي طالب (رض) للخلافة ببضعة ايام قام بارسال عماله على الأمصار، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيدالله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد ابن عبادة على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام (٣٨) .

ويلاحظ ان ثلاثة من هؤلاء الولاة الخمسة كانوا من الأنصار ، وأن الاثنين الآخرين كانا من قريش ، مما يدل على حرص الخليفة علي بن ابي طالب (رض) على تقريب الأنصار والاعتماد عليهم في ادارة الدولة . ولم يول ممن خرج على عثمان أحدا» (٣٩) .

وقد أشير الى انه لم يتح لجميع هؤلاء الولاة الالتحاق بمراكز عملهم بسبب معارضة بعض الأمصار استبدال ولاتهم القدامى بالولاة الجدد ، فعارض أهل الكوفة استبدال عمارة بن شهاب بواليهم ابي موسى الأشعري ، اذ قال له القعقاع حين قابله قبل دخوله الكوفة «أرجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً ، وان أبيت ضربت عنقك» (٤٠) ،

---

(٣٧) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص [illegible] .

(٤٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

فرجع الى الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بالخبر. أما سهل بن حنيف الذي عيّن على الشام فانه ما كاد يصل الى تبوك حتى لقيه بعض رجال معاوية فقالوا له: «من انت؟ قال: أمير، قالوا: على اي شيء؟ قال: على الشام، قالوا: ان كان عثمان بعثك فحيّلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع! قال: أو ما قد سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى، فرجع الى علي»[41].

اما عثمان بن حنيف الذي عيّن على البصرة فانه قد تمكن من دخولها لأن عاملها السابق لم يشأ المقاومة، الاّ أن اهلها كانوا منقسمين تجاه العهد الجديد «وافترق الناس بها، فاتبعت فرقة القوم – أي المعارضون لعلي (رض) – ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا»[42].

وقد تمكن قيس بن سعد من دخول مصر، لكنه وجد اهلها منقسمين على انفسهم الى ثلاث فرق «فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه، وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتا، وقالوا: ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم، والاّ فنحن على جديلتنا حتى نحرك او نصيب حاجتنا، وفرقة قالوا: نحن مع علي ما لم يعد اخواننا، وهم في ذلك مع الجماعة. فكتب الى أمير المؤمنين بذلك»[43].

وقد نجح عبيدالله بن عباس الذي ارسل واليا على اليمن في تولي عمله هناك، لأن واليها السابق يعلى بن أمية جمع «كل شيء من الجباية، وتركه وخرج بذلك. وهو سائر على حاميته الى مكة فقدمها بالمال»[44]، «وكان مع يعلى ستمائة بعير وستمائة الف»[45].

ويبدو ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) لم يقم بعد توليه الخلافة بعزل والي مكة عبدالله بن عامر الحضرمي، ربما لانه توقع ان يمنحه ولاءه، ولكنه لم يلبث أن أظهر وقوفه الى جانب المعارضين له، وجعل من مكة وهي حرم آمن. قاعدة لتجمع المتاوئين له من بني أمية وغيرهم[46].

(٤١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٢.

(٤٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٢.

(٤٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٢.

(٤٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥٠.

(٤٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٨ – ٤٤٩.

وهكذا وجد الخليفة علي بن ابي طالب (رض) نفسه منذ الشهر الأول لتوليه الخلافة ، وقبل ان تتاح لافكاره وسياسته فرصة التطبيق ، يواجه أخطر انقسام شهدته الأمة منذ تكوينها ، فكيف سيستطيع معالجة الموقف ، وما السياسة التي سيطبقها في هذا المجال ؟

ثالثاً : الخليفة علي بن أبي طالب في مواجهة الانقسامات :

لقد وصف الخليفة علي بن ابي طالب (رض) هذه الانقسامات الحادة التي أصابت الأمة بانها « فتنة كالنار ، كلما سعرت ازدادت واستنارت »(٤٧) ومن ثم فان أفضل علاج لها السياسة ومحاولة تهدئة الخواطر وتسكينها ، فان لم تجد كل هذه الوسائل فان « آخر الدواء الكي »(٤٨) ، اي استخدام القوة والسيف .

في ضوء ما تقدم فقد شرع الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بكتابة الرسائل وارسال الرسل ، فكتب الى ابي موسى الاشعري في الكوفة ، فأجابه ابو موسى « بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ، وبين الكاره منهم للذي كان ، والراضي بالذي قد كان ، ومن بين ذلك ، حتى كأن عليا على المواجهة من أمر الكوفة »(٤٩) .

وكتب الى معاوية بن ابي سفيان في الشام ، وأرسل معها مبعوثا اليه ، هو سيرة الجهني « فقدم عليه ، فلم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه ، ورد رسوله »(٥٠) .

وفي شهر صفر ، بعد دخول الشهر الثالث على مقتل عثمان بن عفان (رض) ، قام معاوية بارسال مبعوث عنه الى الخليفة علي بن ابي طالب (رض) برسالة شفهية طلب منه ان ينقلها اليه بطريقة استعراضية مثيرة تستهدف تعريف أهل المدينة بموقف معاوية وأهل الشام من مسألة مقتل عثمان (رض) . روى الطبري ان مبعوث معاوية حينما دخل على الخليفة علي بن ابي طالب (رض) سأله « ما وراءك؟ قال : آمن أنا؟ قال : نعم ، ان الرسل آمنة لا تقتل ، قال : ورائي أني تركت قوما لا يرضون الاّ بالقود – اي بالقصاص – ، قال : ممن ؟ قال : من خيط نفسك – اي رقبتك – ، وتركت ستين الف

(٤٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

(٥٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

شيخ يبكي تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق . فقال : مني يطلبون دم عثمان ! ألست موتورا كترة عثمان ! اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان الاّ أن يشاء الله ، فانه اذا أراد أمراً أصابه »[٥١] ثم أمره بالخروج ، فخرج الى الشام .

لقد توصل الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ، الى ان معاوية لم يترك له وسيلة للتفاهم وحل الخلاف ، فهو قد خرج منذ البداية عن طاعته ومنع من عينه واليا على الشام بدلا عنه من دخولها لمباشرة عمله . ثم رفض الاجابة عن رسالته والدخول في حوار مع المبعوث الذي ارسله اليه ، وها هو الآن يأخذ زمام المبادرة فيتهمه شخصياً وبصورة علنية بأنه مسؤول عن قتل عثمان (رض) ويزعم أن أهل الشام يطلبون الاقتصاص منه ومعاقبته . لذا فقد توصل الخليفة علي بن ابي طالب (رض) انه لابد من تجهيز جيش والخروج باتجاه بلاد الشام لمقاتلة معاوية بن ابي سفيان وحمله على الطاعة[٥٢] .

غير ان حماسة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) للبدء بمقاتلة معاوية ومن أطاعه من أهل الشام ، لم تقابل بالارتياح والحماسة من معظم الصحابة وأغلبية أهل المدينة . فقد ذكر ان طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام استأذنا الخليفة علي بن ابي طالب (رض) للذهاب الى مكة لأداء العمرة فأذن لهما[٥٣] ، وكان ذلك بعد مقتل عثمان (رض) بأربعة أشهر[٥٤] . كما روى ان ابنه الحسن دخل عليه « ودعاه الى القعود وترك الناس »[٥٥] . وحاول أهل المدينة التعرّف على حقيقة موقف الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في معاوية وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه او ينكل عنه »[٥٦] . « فدسوا اليه زياد بن حنظلة التميمي ، وكان منقطعا الى علي — فدخل عليه فجلس اليه ساعة ، ثم قال له علي : يا زياد ، تيسر ، فقال : لأي شيء؟ فقال : تغزو الشام ، فقال زياد : الأناة والرفق أمثل »[٥٧] .

---

(٥١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٥ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ .

(٥٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٥ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٥ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٥ .

لم تستطع مثل هذه الطلبات ان تثني الخليفة علي بن ابي طالب (رض) عن قراره بالخروج الى الشام، ربما لأنه كان يعتقد ألاّ جدوى من الهدوء والصبر وخصمه يعمل ويتحرك. لذا فقد أخذ يحشد جيشاً ممن تبعه للخروج ويبدو أن اقبال أهل المدينة على الالتحاق بهذا الجيش كان ضعيفاً. لذا فقد خطب في «أهل المدينة فدعاهم الى النهوض في قتال أهل الفرقة»(٥٨)، وحذرهم من ان تخليهم عن نصرته قد يؤدي الى ان تفقد المدينة مركزها بصفتها عاصمة الدولة الاسلامية. فكان مما قاله لهم في هذا المجال: «وان في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام، ثم لا ينقله اليكم ابدا حتى يأرز الأمر اليها، انهضوا الى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق، وتقضون الذي عليكم»(٥٩).

وقبل ان تتضح مواقف أهل المدينة من دعوة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) للخروج معه الى الشام لاعادة الوحدة الى الأمة، واصلاح ما أفسد أهل الآفاق جاءته الأخبار من مكة عن اتفاق عائشة ام المؤمنين، وطلحة والزبير، وعبدالله بن عامر، والي عثمان (رض) على مكة، ويعلى بن أمية، عامله على اليمن، ومن تبعهم من بني أمية وغيرهم، الى الخروج للدعوة الى معاقبة قتلة عثمان (رض)(٦٠).

وقد حملت هذه الأخبار الخليفة علي بن ابي طالب (رض) على تأجيل الخروج الى الشام، والتفرغ لمعالجة الموقف الجديد، وذلك لأن قادة هذا التحرك كانوا يتمتعون بمكانة كبيرة في نفوس المسلمين، ومن ثم فان مخاطر معارضتهم قد تفوق بكثير المخاطر الناجمة عن معارضة معاوية بن ابي سفيان.

غير ان مما يجدر ذكره في هذا المجال ان السيدة عائشة (رض) وطلحة والزبير لم يتهموا الخليفة عليا (رض) بقتل عثمان (رض) او تحمل مسؤولية قتله، كما فعل معاوية ابن ابي سفيان، وانما أكدوا على لسان ام المؤمنين عائشة «أن عثمان قتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام»(٦١).

---

(٥٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٦ - ٤٤٨ - ٤٥٠.

(٦١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٩.

يبدو مما تقدم أن السيدة عائشة (رض) وطلحة والزبير كانوا يرون ان الغوغاء من الخارجين على الخليفة عثمان بن عفان (رض) هم المسؤولون عن قتله، وأن علي بن ابي طالب (رض) لم يكن في وضع يمكنه من السعي لتحديد قتلة عثمان ومعاقبتهم بحكم سيطرة هؤلاء الغوغاء على المدينة. لذا فان خروجهم للمطالبة بدم عثمان (رض) كان يعني في نظرهم «دعوة الناس الى الاصلاح»[٦٢] والعمل على عزة الاسلام.

وقد أورد الطبري رواية تشير الى انه لم يكن ثمة ترابط بين الخروج للدعوة للمطالبة بمقاتلة قتلة عثمان (رض) وبين الخروج على خلافة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في أذهان كل من عائشة (رض) وطلحة والزبير. فحين بعث عثمان بن حنيف، عامل الخليفة علي (رض) على البصرة ممثلين عنه اليهم لسؤالهم عن سبب مسيرهم الى البصرة أخبرتها عائشة (رض) انها جاءت لدعوة المسلمين الى اصلاح ما أحدثه الخارجون على عثمان من فساد ومعاقبة قتلة عثمان. اما طلحة فقال انه قد جاء للطلب بدم عثمان، وأنه لا يستقيل من بيعته للخليفة علي بن ابي طالب (رض) ان هو لم يحل بينهم وبين قتلة عثمان. وكان جواب الزبير مطابقاً لجواب طلحة[٦٣].

ولا تقدم لنا المصادر معلومات تساعدنا على التعرف على خطة كل من عائشة وطلحة والزبير (رض) في الطلب بدم عثمان دون أن يمس ذلك بمقام الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ومكانته بصفته خليفة للمسلمين. ويبدو من الجمع بين مختلف المواقف والروايات ان الخطة كانت تتلخص باقناع أهل البصرة والكوفة للقدوم على المدينة ومعاقبة قتلة عثمان (رض) وطرد الخارجين على عثمان منها، ثم تحرير الخليفة علي بن ابي طالب (رض) من تسلطهم عليه واطلاق يده في ادارة شؤون المسلمين بطريقة سليمة[٦٤]. ويلاحظ ان هذه الخطة كان قد سبق لكل من طلحة والزبير ان عرضاها على الخليفة علي بن ابي طالب (رض) حينما كانا في المدينة فلم يقتنع بها كما أوضحنا ذلك آنفا لأنه كان يخشى ان يؤدي ذلك الى نوع من الحرب الأهلية ويخرجه عن السياسة التي كان يعتزم اتباعها

(٦٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤٦.

(٦٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٦١ - ٤٦٢.

(٦٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٦١.

- التوجه الى البصرة ووقعة الجمل :

لقد استطاع طلحة والزبير وعائشة ان يحشدوا جيشا بلغ تعداد أفراده حوالي ثلاثة
ن رجل ، وتوجهوا به الى البصرة ، على أمل الحصول على تأييد أهلها لخطتهم في
قبة قتلة عثمان (رض)[٦٥] . غير أنهم ما كادوا يصلون اليها حتى وجدوا أن أهل البصرة
وا منقسمين على أنفسهم تجاه هذه المسألة ، وقد أدى وصولهم اليها الى تعميق أسباب
رقة والانقسام وحصل بينهم وبين أنصار الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في المدينة
صادمات متعددة وقتال انتهى بسيطرتهم على المدينة وابعاد عثمان بن حنيف والي البصرة
ن عمله بعد ضربه والتشهير به[٦٦] .

لقد عدّ الخليفة علي بن ابي طالب (رض) تحركات طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة
عاً من الخروج على خلافته ، فقال حينما بلغته أخبارهم من مكة ، فقال : « ان طلحة
الزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سخط امارتي ، ودعوا الناس الى الاصلاح ، وسأصبر
ا لم أخف على جماعتكم ، وأكف ان كفوا ، وأقتصر على ما بلغني منهم »[٦٧] .

غير انه اضطر ، حينما بلغته أنباء سيرهم الى البصرة الى دعوة الناس للتعبئة والخروج
معه اليهم ، لأنه خشي ان يؤدي عملهم الى « انقطاع نظام المسلمين »[٦٨] ، أي الفوضى
واشتعال نار الحرب الأهلية .

وتشير الروايات التي أوردها الطبري الى ان أهل المدينة قد تثاقلوا عن تلبية نداء الخليفة
علي بن ابي طالب (رض) للخروج معه وفضلوا البقاء في المدينة ، فلم ينهض « في تلك
الفتنة الاّ ستة بدريين مالهم سابع ، أو سبعة مالهم ثامن »[٦٩] . وحينما أرسل الخليفة علي
ابن ابي طالب (رض) الى عبد الله بن عمر يدعوه للخروج معه اعتذر بقوله : « أنا مع
أهل المدينة ، انما انا رجل منهم ، وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لأفارقهم ، فان
يخرجوا أخرج ، وان يقعدوا أقعد »[٧٠] .

---

(٦٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ .
(٦٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦٣ – ٤٧٠ .
(٦٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٦ .
(٦٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٦ .
(٦٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٧ .
(٧٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤٦ .

ولاتزودنا المصادر بمعلومات دقيقة عن عدد الرجال الذين خرجوا معه من أهل المدينة ، فيذكر الطبري ان الخليفة عليا (رض) خرج في «تعبيته التي كان تعبى بها الى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل»[٧١] . اما المسعودي فانه يذكر أن الخليفة عليا سار الى البصرة بعد حوالي أربعة أشهر من توليه الخلافة «في سبعمائة راكب منهم اربعمائة من المهاجرين والأنصار»[٧٢] .

ان ما تقدم يشير الى قلّة عدد من ساهم في جيش الخليفة على من أهل مكة والمدينة ، لذا فانه قد اضطر الى الاعتماد بصورة كبيرة على ابناء القبائل في الأمصار ، فأرسل الى أهل الكوفة يستنفرهم لمعاونته ، فأرسلوا له نحوا من «سبعة آلاف ، وقيل ستة آلاف وخمسمائة وستين رجلا منهم الأشتر»[٧٣] .

لقد ترتب على الأمور الآنفة الذكر ان وجد الخليفة علي بن ابي طالب (رض) نفسه مضطرا للاعتماد بصورة رئيسة على اهل الكوفة ونقل عاصمة الدولة اليها ، لأن فيها الرجال والمال ، مما سيؤدي الى زيادة تأثير أهل الكوفة على سياسة الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) بكل ماينطوي عليه هذا التأثير من نزعات قبلية وأقليمية حادة[٧٤] .

وقبل ان يغادر الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) المدينة عيّن على ولايتها تمام بن العباس ، وعين على ولاية مكة قثم بن العباس ليحل محل عبد الله بن عامر الحضرمي الذي كان قد وقف الى جانب طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة[٧٥] .

وحين وصل الخليفة علي بن ابي طالب (رض) الى البصرة كان حريصا على حل الخلافات مع طلحة والزبير وأم المؤمنين بصورة سلمية . وقد عبر عن ذلك حين سئل عن مقصده من الخروج فقال : «أما الذي نريد ونبتغي فالاصلاح ، إن قبلوا منّا وأجابونا اليه ، قال : فان لم يجيبوا اليه؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر ، قال : فان لم يرضوا قال : ندعهم ماتركونا ، قال : فان لم يتركونا؟ اقل : امتنعنا منهم»[٧٦] .

---

(٧١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ .
(٧٢) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ – ٣٩٦ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ .
(٧٤) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٥٨ – ٥٩ .
(٧٥) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ .
(٧٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٧٩ ؛ انظر ايضا : ص ٤٨٧ .

ان الترجمة العملية لهذا التوجه لو صحت هذه الرواية كانت تتطلب ان يبقى الخليفة
يّ بن ابي طالب (رض) في المدينة ويسعى الى حل الخلافات مع خصومه عن طريق
لمفاوضات . اما وقد خرج ، وأصبح الجيشان المتخاصمان يتقابلان وجها لوجه في ساحة
لمعركة فقد غدا من الصعب جدا السيطرة على الموقف وتغليب الحكمة وروح الاصلاح على
حسم الخلاف عن طريق القتال .

وقد أورد الطبري روايات مستفيضة عن مفاوضات جرت بين أنصار الخليفة عليّ ابن
ابي طالب (رض) وأم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير حتى كادوا يتوصلون الى اتفاق نهائي
على حل الخلافات بينهم . وقد أدخل هذا الأمر الرعب في نفوس قتلة عثمان (رض)
وأنصارهم لأنهم أدركوا ان نتيجة الاتفاق ستكون وبالا عليهم (٧٧) . « فبات الذين أثاروا
أمر عثمان بشر ليلة بلتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلّها ،
حتى اجتمعوا على انشاب الحرب في السر ، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من
الشر ، فغدوا مع الفلس ، وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا الى ذلك الأمر انسلالا ،
وعليهم ظلمة ، فخرج مضريهم الى مضريهم ، وربعيهم الى ربعيهم ، ويمانيهم الى يمانيهم ،
فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين
بهتوهم » (٧٨) .

وهكذا تم اشعال نيران معركة ضارية لأول مرة بين المسلمين ، فقتل المسلم أخاه
المسلم ، وقد دعيت هذه المعركة بوقعة الجمل ، لأن المعركة دارت حول الجمل الذي كان
يحمل هودج ام المؤمنين عائشة (رضن) . (٧٩)

وقد قتل في هذه المعركة أعداد كبيرة من مقاتلي الطرفين كان على راسهم طلحة وابن
الزبير . وقد بالغت المصادر كثيرا في عدد من قتل في هذه المعركة ، فذكر المسعودي ان قتلى
« اصحاب الجمل من اهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً ، وقتل من اصحاب علي خمسة
آلاف » (٨٠) . وقد علق المسعودي نفسه على هذه الأعداد بقوله : « وقد تنازع الناس في
مقدار من قتل من الفريقين ، فمن مقلل ومكثر ، فالمقلل يقول : قتل منهم سبعة آلاف ،
والمكثر يقول عشرة آلاف .. على حسب ميول الناس وأهواء كل فريق » (٨١) .

(٧٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٨٨ - ٤٩٤ .
(٧٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥١٦ .
(٧٩) ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .
(٨٠) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .
(٨١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ ، راجع ايضا ؛ ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٦٧ ؛ الطبري : تأريخ ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ .

والحقيقة ان التقديرات الآنفة الذكر عن عدد القتلى قد تزيد على عدد الرجال الذين شاركوا في معركة الجمل ، وان المرء ليحار كيف يوفق بين هذه التقديرات ، وبين القائمة التي أوردها خليفة بن خياط بأسماء قتلى معركة الجمل التي تضمنت حوالي الخمسين اسما ، فضلا عن ستين شخصا آخرين نسبهم الى قومهم ومن غير ان يذكر اسماءهم (٨٢).

ان ماتقدم يدل على ان عدد القتلى في هذه المعركة كان لايتجاوز المئات على أبعد تقدير ، غير ان ميول الرواة وأهواءهم قد ضخمت الأعداد فجعلت من المئات آلافا. وربما كان ذلك تعبيرا عن احساسهم بعظم المصيبة التي أصابت المسلمين في هذه الوقعة الأليمة.

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه المعركة بانتصار جيش الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) ، وتأكيد سلطانه على البصرة والكوفة وبقية أقاليم الدولة العربية الاسلامية عدا بلاد الشام. وكان ذلك بعد توليه الخلافة بخمسة أشهر وواحد وعشرين يوما (٨٣).

ويلاحظ أن الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) لم يظهر شيئا من الفرح او الابتهاج بهذا النصر كما يفعل القادة في مثل هذه المناسبات ، بل ظهر عليه الحزن والتوجع على من قتل من الطرفين ، وصلى عليهم وترحم على أرواحهم (٨٤) ، وأمر ألا تؤخذ اموالهم غنيمة. فاعترض عليه قوم يومئذ قائلين : «يحل لنا دماءهم ويحرم علينا اموالهم ؟ فقال علي : القوم أمثالكم ، من صفح عنّا فهو منّا ، ونحن منه» (٨٥).

وقد خصّ الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) ام المؤمنين عائشة (رض) بمعاملة خاصة ورعاية متميزة اكراما لمكانتها من رسول الله (ﷺ) ، فأمر بتجهيز راحلتها للعودة الى المدينة وأرسل معها من يرافقها ويعني براحتها حتى تصل الى منزلها في المدينة وهي معززة مكرمة (٨٦).

---

(٨٢) ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٦٧ – ١٧٢.
(٨٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٨٨.
(٨٤) الطبري : تأريخ ، ج ٤ ، ص ٥٣٨.
(٨٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٤١.
(٨٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٤٤.

٢ – معركة صفين والتحكيم :

بعد انتصار الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في وقعة الجمل قام بتعيين عبد الله بن عباس واليا على البصرة[٨٧] . ثم توجه بمن معه من الجند الى الكوفة ، فاتخذ له معسكرا فيها . وبدأ من الكوفة في ادارة شؤون الدولة وتوجيه سياستها . وكان على رأس اهتماماته في هذه المرحلة محاولة اقناع معاوية بن ابي سفيان بالتخلي عن معارضته له والدخول في طاعته . فأرسل اليه جرير بن عبد الله البجلي ، وكان عاملا للخليفة عثمان على همدان ، «يدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته»[٨٨] .

غير ان معاوية بن ابي سفيان «ماطله واستنظره ، ودعا عمرو بن العاص ، فاستشاره فيما كتب به اليه ، فأشار عليه ان يرسل الى وجوه الشام ، ويلزم عليا دم عثمان ، ويقاتله بهم . ففعل ذلك معاوية»[٨٩] . وبذلك قطع الطريق على اية محاولة لحل الخلاف بينهما بالوسائل السلمية .

في ضوء ماتقدم فقد بادر الخليفة علي بن أبي طالب (رض) الى الخروج من الكوفة في ٥ من شوال سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م لمقاتلة معاوية ابن أبي سفيان على رأس جيش قدّر عدد افراده بتسعين الف مقاتل ، وسار به باتجاه بلاد الشام حتى عسكر على موضع يقع على الجانب الغربي من أعالي نهر الفرات يدعى صفين[٩٠] .

وقد ردّ معاوية على مبادرة الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) بالخروج ، بتجهيز جيش قدّر عدد افراده بنحو خمسة وثمانين الف مقاتل تولى قيادته بنفسه . وقد أشير الى ان معاوية نجح في الوصول الى صفين قبل ان يصل اليها عليّ بن ابي طالب ، واستطاع بذلك ان يعسكر عند موضع ماء بحيث يتمكن من حرمان جيش الخليفة علي (رض) من التزود بما يحتاجون اليه من ماء[٩١] .

وقد حاول معاوية ان يستخدم هذه الميزة فيمنع جيش الخليفة علي من التزود بالماء ، فقال له عمرو بن العاص «ان عليا لايموت عطشا هو وتسعون الفا من أهل العراق

(٨٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٤٣ .
(٨٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٦١ .
(٨٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٦١ – ٥٦٢ .
(٩٠) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤١٥ – ٤١٦ .
(٩١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

وسيوفهم على عواتقهم »[٩٢] ، غير ان معاوية أصر بما أجبر جيش الخليفة علي (رض) على ان يخوض معركة ضد جيش معاوية للوصول الى الماء. وقد نجح في تحقيق هدفه وأزاح جيش معاوية عن موضعه [٩٣].

ولم يحاول الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ان يقابل السيئة بمثلها فيمنع جيش معاوية من ورود الماء، بل سمح لهم بأخذ حاجتهم منه، وبادر في اول يوم من ذي الحجة من سنة ٣٦ هـ الى دعوة معاوية لاتحاد الكلمة «والدخول في جماعة المسلمين ، وطالت المراسلة بينهما ، فاتفقوا على الموادعة الى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين»[٩٤] . ويبدو أن الدافع الذي دفعهم للهدنة في شهر محرم حرمة هذا الشهر ووجود أمل في التوصل الى حل سلمي للمشكلة ، فلما عجزوا عن الوصول الى حل بعث الخليفة علي بن ابي طالب (رض) الى أهل الشام «اني قد احتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم اليه ، واني قد نبذت اليكم على سواء ، ان الله لايهدي كيد الخائنين. فلم يردوا عليه الا : السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا »[٩٥] .

وهكذا تجددت الحرب بين الطرفين في أول يوم من صفر سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧ م على صورة أشد مما بدأت. وكانت الحرب قد اتخذت في بدايتها شكل مناوشات ومبارزات متفرقة بين الفرسان. فكان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) «يأمر الرجل ذا الشرف ، فيخرج معه جماعة . ، ويخرج اليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة ، فيقتتلان في خيلها ورجالها ثم ينصرفان ، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوفون ان يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك »[٩٦] . وقد استمرت وتيرة الحرب على هذه الشاكلة طوال شهر ذي الحجة من سنة ٣٦ هـ ، ثم توقفت طوال شهر محرم من سنة ٣٧ هـ. فلما انقضى هذا الشهر وعجز الطرفان عن الوصول الى اتفاق استؤنف القتال في يوم الأربعاء بصورة عنيفة بحيث استخدم كل طرف أقصى مالديه من قوة وطاقة من أجل احراز النصر على الطرف الآخر. وقد استمر القتال على هذا النحو عشرة أيام. وقد أفاضت المصادر في تفاصيل الوقائع وأهوالها ، حتى مالت كفة الميزان لصالح جيش العراق. عند

(٩٢) المصدر نفسه : ج ٢، ص ٤١٦.
(٩٣) المصدر نفسه : ج ٢، ص ٤١٦- ٤١٨.
(٩٤) المصدر نفسه : ج٢ ، ص ٤١٨.
(٩٥) المصدر نفسه : ج ٢، ص ٤١٨.
(٩٦) الطبري : تاريخ ، ج ٤، ص ٥٧٤.

لك شعر معاوية بضرورة اللجوء الى السياسة لتغيير مسار القتال ، فاستشار عمرو بن لعاص فيما يفعل فاقترح عليه الدعوة الى تحكيم القرآن ، كتاب الله (٩٧).

وحين وافق معاوية على مقترح ابن العاص قال عمرو بن العاص مخاطبا جيش الشام «أيها الناس ، من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه ، فكثر في الجيش رفع المصاحف ، وارتفعت الضجة ، ونادوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن لجهاد الروم ، ومن للترك ، ومن للكفار» (٩٨).

وقد أثر هذا النداء في نفوس جيش العراق، فقال كثير منهم «نجيب الى كتاب الله وننيب اليه. وأحب قوم الموادعة ، وقيل لعلي: قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك الى كتاب الله ، فاقبل منه، وكان أشدهم عليه في ذلك اليوم الأشعث بن قيس» (٩٩).

لقد حاول الخليفة علي بن ابي طالب (رض) أن يقنع اتباعه ان ماأقدم عليه أهل الشام من رفع المصاحف انما هي خدعة ومكيدة بعد أن مالت الحرب لغير صالحهم، الا أن قادة جيشه أصروا على موقفهم ، وتهددوه ان رفض دعوة أهل الشام «أن يصنعوا به ماصنع بعثمان» (١٠١) ، فوافق على طلبهم وهو يقول «بالأمس كنت أميرا ، واليوم أصبحت مأمورا» (١٠٢).

وهكذا فقد قام الخليفة علياً (رض) بايفاد الأشعث بن قيس الى معاوية للتعرف على تفاصيل مقترحه بشأن وقف القتال. فقال له معاوية: «نرجع نحن وأنتم الى كتاب الله ، والى ماأمر به في كتابه: تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه ، ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهود والميثاق ان يعملا بما في كتاب الله ولايخرجا عنه ، وننقاد جميعا الى مااتفقنا عليه من حكم الله. فصوب الأشعث قوله ،وانصرف الى علي فأخبره ذلك. فقال أكثر الناس : رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا». (١٠٣).

ويبدو مما وصل الينا من روايات ان من اهم الأسباب التي دفعت كلا الطرفين المتحاربين الى ايقاف القتال والترحيب بفكرة التحكيم ان القتال الذي دار بين الطرفين

(٩٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠ – ٤٨ ، المسعودي : مروج الذهب ج٢ ، ص ٤١٨– ٤٣٢.
(٩٨) المسعودي: مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٣٢.
(٩٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٣٢.
(١٠١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٣٣.
(١٠٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٣٣.
(١٠٣) المصدر نفسه: ج ٢ ، ص ٤٣٤.

كان قتالا ضاريا تكبد فيه الجانبان خسائر فادحة في الأرواح. فقد ذكر ابن خياط ان عدد القتلى في معركة صفين كان قد بلغ حين توقف القتال «سبعون الفا ، قتل خمسة وأربعون الفا من أهل الشام ، وخمسة وعشرون الفا من أهل العراق»(١٠٤). وأنه على الرغم من أن هذا الرقم ينطوي على مبالغة كبيرة فان له من الدلالة الشيء الكثير، وبخاصة أن المتحاربين ينتمون الى امة واحدة وعقيدة واحدة. وإن مما يدل على ان هذا العامل كان هو السبب في موافقة أهل العراق على ايقاف القتال قول الخليفة علي بن ابي طالب (رض) لهم: «انه لم يزل من امركم ماأحب ، حتى قرحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت.»(١٠٥).

٣- الاتفاق على الحكمين ونتائجه:

لقد اختار اهل الشام عمرو بن العاص ليكون ممثلا عنهم في التحكيم في النزاع القائم بين الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ومعاوية بن ابي سفيان. أما أهل العراق فقد طلب أغلبهم وعلى رأسهم الأشعث بن قيس ان يمثلهم ابو موسى الأشعري، وذلك لأن ابا موسى كان يتمتع بثقة أهل الكوفة منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) حتى أنهم أجبروه على توليته عليهم، كما أوضحنا سابقا. غير ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) لم يرتح لهذا الطلب ، وقال لهم : «انكم قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن ، اني لاأرى أن اولي ابا موسى ، فقال الأشعث وزيد بن حصين الطائي ومسعد بن فدكي: لانرضى الا به ، فان ماكان يحذرنا منه وقعنا فيه ، قال علي : فانه ليس لي بثقة ، قد فارقني ، وخذل الناس عني ، ثم هرب مني حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك ، قالوا : مانبالي أنت كنت ام ابن عباس ، لانريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس الى واحد منكما بأدنى منه الى الآخر، فقال علي : فاني أجعل الأشتر ....- قالوا - : وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ »(١٠٦) وفي رواية أخرى ان الأشعث اجابه : «وهل نحن الا في حكم الأشتر قال علي : وماحكمه ؟ قال: حكمه ان يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ماأردت ومأراد ، قال : فقد أبيتم الا ابا موسى قالوا : نعم ، قال : فاصنعوا ماأردتم، فبعثوا اليه....»(١٠٧).

---

(١٠٤) ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٧٦ : انظر ايضا: المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧.
(١٠٥) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٣٣.
(١٠٦) الطبري : تأريخ ، ج ٥ ، ص ٥١.
(١٠٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥١.

ويتشاتمون ويضطربون بالسياط، يقول الخوارج – وهو الاسم الذي أطلق على هذا الفريق –: «ياأعداء الله، أدهنتم في أمر الله عزّوجل وحكمتم وقال الآخرون: فارقتم امامنا، وفرقتم جماعتنا، فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء، فنزل بها منهم اثنا عشر الفا، ونادى مناديهم: ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي. وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عزّوجل، والأمر بالعروف والنهي عن المنكر»[113].

وهكذا فقد حصل اكبر انشقاق في صفوف جيش الخليفة علي بن ابي طالب (رض)، وظهر حزب جديد، يدعو لمناوأة الخليفة علي بن ابي طالب (رض)، ومعاوية بن ابي سفيان ويعمل على تحقيق أهدافه الانفة الذكر ليس عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب وأنما عن طريق القتال ايضا.

غير ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) قد أفلح بعد عودته الى الكوفة في اقناعهم بالتخلي عن معارضتهم والعودة الى صفوف الجماعة. ويذكر أنهم اشترطوا عليه ان يتخلى عن المضي في تنفيذ التزاماته في مسألة التحكيم، ويعود الى محاربة أهل الشام بعد ستة اشهر فوافق على ذلك[114]. ويبدو أن ذلك غير صحيح لأنه لايتفق مع أخلاق الخليفة علي بن ابي طالب (رض) وقيم الاسلام التي تدعو الى الوفاء بالعهود. ومن المحتمل انه تباطأ في تنفيذ التزاماته مراعاة للوضع الداخلي.

فقد أورد الطبري رواية تشير الى ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) تأخر في اتخاذ الاجراءات اللازمة من جانبه لتنظيم التحكيم فقدم عليه معن بن يزيد السلمي فقال له: «ان معاوية قد وفى، ففِ أنت لا يلفتنك عن رأيك أعاريب بكر وتميم، فأمر علّي بإمضاء الحكومة، وقد كانوا افترقوا من صفين على ان يقدم الحكمان في اربعمائة اربعمائة الى دومة الجندل»[115].

---

(١١٣) المصدر نفسه: ج ٥، ص ٦٣.

(١١٤) المصدر نفسه: ، ج ٥، ص٦٦.

(١١٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٦.

يبدو مما تقدم ان اصرار الأشعث بن قيس ومن تابعه على تعيين ابي موسى الأشعري حكما كان يتجاوز مجرد الخلاف على أفضل الأشخاص لتمثيلهم في التحكيم الى شكهم في مدى سلامة سياسة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بل، ومدى احقيته بالخلافة، لأنهم كانوا يصرون على وضعه على قدم المساواة مع معاوية، وأنهم قد اختاروا ابا موسى للتحكيم لأن موقفه من معاوية مساو لموقفه من علي (رض). وهذا ليس من العدل في شيء لأن ابا موسى سيمثل أهل العراق الذين هم الى جانب الخليفة علي بن ابي طالب (رض) وليس أهل الشام، أو أناسا آخرين لاعلاقة لهم بالصراع القائم بين الطرفين.

وهكذا فقد أضطر الخليفة علي بن ابي طالب (رض) الى القبول بتعيين ابي موسى الأشعري ليكون ممثلا عنه في التحكيم. وبذلك تم الانتقال الى الخطوة الثانية، وهي كتابة الصحيفة التي توضح الشروط التي اتفق عليها الطرفان للتحكيم. وهنا أصر عمرو بن العاص ممثل أهل الشام على عدم الموافقة على وصف الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بصفة أمير المؤمنين في الصحيفة، فقال: «هو اميركم فأما أميرنا فلا»، فوافق الخليفة علي (رض) على ذلك تحت ضغط الأشعث ابن قيس.(١٠٨)

وأخيرا تم الاتفاق على الصيغة النهائية لصحيفة التحكيم، وقد تضمنت اعلان الهدنة بين الطرفين المتحاربين، وأن يجتمع الحكمان في شهر رمضان للحكم في النزاع القائم، وان للحكمين ان يؤخرا هذا الموعد ان رأيا ذلك. وقد تعهد الطرفان بالالتزام بنتيجة التحكيم وأشهدا على ذلك الشهود(١٠٩). وقد أشير الى ان تاريخ كتابة هذه الصحيفة كان في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ هـ/٦٥٧ م (١١٠)، كما ذكر انه تم الاتفاق على ان يكون الموضع الذي يلتقي فيه الحكمان دومة الجندل أو أذرح (١١١).

لقد كان من مقتضيات هذا الاتفاق ان تتوقف الحرب ويعود كل طرف الى اقليمه بانتظار موعد التحكيم الذي سيحين بعد ذلك بثمانية أشهر على الأقل. وقد رجع معاوية وجنده الى بلاد الشام وهم متحدون ومغتبطون بالنتيجة. اما جيش العراق فقد رجعوا الى الكوفة وهم ساخطون متفرقون، وذلك لأن فريقا منهم لم يرضوا عن موافقة الخليفة علي ابن ابي طالب (رض) على التحكيم، وقالوا: «حكم بني آدم في حكم الله عزوجل»، وقالوا: لاحكم الا لله سبحانه» (١١٢)، ثم أقبلوا راجعين وهم «يتدافعون الطريق كله»،

(١٠٨) المصدر نفسه: ج٥، ص ٥٢.
(١٠٩) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٣- ٥٤.
(١١٠) المصدر نفسه: ج ٥، ص ٥٧.
(١١١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٧.
(١١٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٧.

٤ـ التحكيم وآثاره السياسية :

كان اتفاق التحكيم يقضي بأن يجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ، أي بعد ثمانية أشهر من الاتفاق في دومة الجندل لأنها في موضع متوسط بين الشام والعراق، فان لم يجتمعا في هذا الموعد كان لهما ان يؤخراه الى موعد آخر ويكون موضع اجتماعهما في منطقة أذرح.(١١٦)

ويفهم من روايات الطبري ان الاجتماع قد تم في موعده المقرر، ومن غير تأخير، وإن كانت إحدى روايات الطبري تضطرب حينما تتحدث عن مكان إجتماع الحكمين فتقول إنها إجتمعا «بدومة الجندل بأذرح»(١١٧) . علماً بأن موضع دومة الجندل هو ليس بأذرح .

ويشير الطبري الى أن الواقدي زعم أن إجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة(١١٨) ، بأذرح(١١٩) ، ويؤكد المسعودي أن إلتقاء الحكمين : عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري قد حصل في سنة ٣٨هـ بأرض البلقاء من أعمال دمشق(١٢٠) .

ويبدو من المقارنة بين الروايات وما أحاط بها من الأخبار أن الاجتماع لم يعقد في موعده بدومة الجندل ، وإنما تأخر عن موعده الأول فعقد في سنة ٣٨هـ في أذرح ، وإن مما يؤكد ذلك أن الطبري أشار الى أن الخوارج كانوا يضغطون على الخليفة علي بن أبي طالب (رض) لعدم تنفيذ الاتفاق ، وأنه قد تلكأ بإرسال ممثله الى التحكيم . ثم ان رواية الطبري حينما تتحدث عن موضع الاجتماع تضطرب ، لذا فإن من الأرجح أن ماذكره الواقدي والمسعودي عن تاريخ الاجتماع ومكانه هو الأقرب للصواب .

وهكذا فقد إنعقد الاجتماع في أذرح في شعبان سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م ، وحضره فضلاً عن الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص أربعمائة شاهد عن كل من أهل العراق

---

(١١٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٤ ، ٦٧ .
(١١٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦٧ .
(١١٨) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٧١ .
(١١٩) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦٦ .
(١٢٠) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

والشام. ويبدو مما أورده الطبري أن فترة المفاوضات بين الحكمين قد إمتدت طويلاً بدليل حديثه عن وصول رسل من معاوية وعلي (رض) الى ممثليها في إجتماع التحكيم (١٢١).

وتشير المصادر الى أن عمرو بن العاص سأل أبو موسى الأشعري في بداية إجتماعهما قائلاً: «ألست تعلم عثمان (رض) قتل مظلوماً؟: قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى، قال: فإن الله عزّ وجل قال: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا﴾ (١٢٢)، فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى» (١٢٣). فأجابه أبو موسى بأن معاوية إذا جاز له أن يكون ولياً للمطالبة بدم قريبه عثمان (رض) فإنه لا يجوز له أن يطالب بالخلافة متجاوزاً المهاجرين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ. ثم دعاه الى الموافقة على أحياء إسم عمر بن الخطاب (رض) بإختيار إبنه عبدالله للخلافة فرفض عمرو بن العاص ذلك، وإقترح عليه الموافقة بدلاً عن ذلك، على إختيار إبنه عبدالله بن عمرو للخلافة فأبى ذلك (١٢٤).

إن ما تقدم يشير الى أن الحكمين كانا متفقين على إستبعاد الخليفة علي بن أبي طالب (رض) عن الخلافة، وأن خلافهما كان محصوراً في مسألة من يتولى الخلافة من بعده. لذلك فقد إنتهى الاجتماع بينهما الى هذه النتيجة التي يلخصها قول أبي موسى الأشعري مخاطباً عمرو بن العاص: «رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شوري بين المسلمين، فيختار المسلمون لانفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت» (١٢٥).

وقد أشير الى ان عمرو بن العاص طلب من أبي موسى الأشعري أن يخرج الى الناس ويعلن لهم هذا الاتفاق، ثم يقوم هو من بعده بتأكيد ما تم الاتفاق عليه. فتقدم أبو موسى فقال: «أيها الناس، أنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأى عمرو عليه، وهو أن نخلع عليا ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وأني قد خلعت عليا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم تنحى، وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه،

---

(١٢١) الطبري: تاريخ، ج ٥، ص ٦٧.
(١٢٢) سورة الاسراء، الآية ٣٣.
(١٢٣) الطبري: تاريخ، ج ٥، ص ٦٨.
(١٢٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٨.
(١٢٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٠.

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه ، فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت »(١٢٦) .

غير أن هنالك من الأخبار مايشير الى عدم حصول إتفاق بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص وعدم وقوع خدعة على النحو الذي أوردته الروايات الآنفة الذكر(١٢٧) . فقد ذكر إبن خياط ان الحكمين لم يتفقا على شيء وافترق الناس(١٢٨) . كما أشار المسعودي إلى ان الاتفاق بين الحكمين قد إقتصر على القول بأن الخليفة عثمان (رض) قد قتل مظلوماً ، وأن من حق معاوية أن يطالب بمعاقبة قتلته ، « وأنهما لم يخطبا »(١٢٩) ، ومن ثم ، فلم تكن هنالك خدعة ، وينفي ابن العربي الروايات التي تتحدث عن مخادعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري في أثناء التحكيم ، ويقول أن « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط »(١٣٠) ، ويؤكد أن الحكمين إتفقا على خلع عليّ (رض) ومعاوية ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم أحد « النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض »(١٣١) ، ولم يقدر لحكمهما النفاذ لعدم قبول أهل العراق والشام له .

لقد ترتب على نتائج التحكيم أن قوى مركز معاوية بن أبي سفيان وأنصاره لأنه إستطاع أن يحصل من ممثل الخليفة علي بن أبي طالب (رض) في التحكيم على الاعتراف بأن عثمان قد قتل مظلوماً ، وأنه أولى الناس بالمطالبة بدمه . كما ترتب على موافقة أبي موسى الأشعري على خلع الخليفة علي بن أبي طالب (رض) عن الخلافة زوال الأساس الشرعي لمطالبة الخليفة علي بن أبي طالب (رض) أهل الشام بمبايعته والامتثال لطاعته كما إضطرب ذلك الأساس بالنسبة للكثيرين من أنصار الخليفة علي بن أبي طالب (رض) . وقد تمثل ذلك في مواقف الخوارج ومن تأثر بهم . وربما كان أوضح تعبير عن هذا الموقف قول الخريت بن راشد ، وهو أحد الذين خرجوا على الخليفة علي بن أبي طالب

---

(١٢٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(١٢٧) لمزيد من التفصيل ، راجع ، رمزي إبراهيم عبدالله : ابو موسى الاشعري ودوره السياسي والاداري والعسكري في العراق ، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور صلاح الدين أمين طه ، كلية الآداب - جامعة الموصل ، ١٩٨٩ ، ص ١١٦ - ١٣٣ .

(١٢٨) ابن خياط : تاريخ . ج ١ ، ص ١٧٤ .

(١٢٩) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

(١٣٠) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ١٧٧ .

(١٣١) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(رض) بعد التحكيم : «ان علياً حكّم حكماً ورضي به ، فخلعه حكمه الذي ارتضاه لنفسه ، فقد رضيت أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه»[١٣٢] .

والحقيقة أن الخليفة علي بن أبي طالب (رض) لم يرض بالتحكيم الاّ مكرها ، ولم يوافق على قيام أبي موسى الأشعري بتمثيله الاّ مضطراً ، وقد عدّ تنازع الحكمين وإتهام أبي موسى لعمرو بن العاص بالغدر والفجور فشلاً لعملية التحكيم ، ومن ثم فهو في حل من الالتزام بنتيجة التحكيم[١٣٣] .

في ضوء ما تقدم فقد حاول الخليفة علي بن أبي طالب (رض) إعادة حشد إتباعه وتجنيدهم لاستئناف القتال مع أهل الشام ، غير أن الذي منعه من المضي في تنفيذ هدفه هو عودة الخوارج لاستئناف نشاطهم وتحديهم لخلافته على أرض العراق ، مما أجبره على أن يقدم الصراع معهم على الصراع مع أهل الشام[١٣٤] . لذا فإن من الضروري أن نقدم إستعراضاً موجزاً لنشأة الخوارج وتطور صراعهم مع الخليفة علي بن أبي طالب (رض) ذلك لأن هذا الصراع كانت له آثار خطيرة على سياسة الخليفة علي بن أبي طالب (رض) وحياته .

٥- ظهور الخوارج وصراعهم مع الخليفة علي (رض) :

يرجع ظهور الخوارج كما قدمنا الى معركة صفين ، حيث رفض قسم من إتباعه قبول التحكيم ، وعدوا الموافقة على تحكيم الرجال في مسألة منازعة معاوية وإتباعه للخليفة علي ابن أبي طالب (رض) حقّه في الخلافة وخروجهم عن طاعته نوعاً من الشك في أحقية موقفهم في مقاتلة معاوية وحزبه تنفيذاً لأمر اللّه في هذا المجال . وقد لخصوا موقفهم هذا في الشعار الذي غدا علماً عليهم : «لا حكم الاّ للّه» فأطلق عليهم وصف المحّكمة لأنهم يدعون الى تحكيم اللّه تعالى لا تحكيم الرجال[١٣٥] .

وبعد رجوعهم من صفين لم يدخلوا الكوفة ، وإنما نزلوا في منطقة تدعى الحرورية خارجين بذلك عن طاعة الخليفة علي بن أبي طالب (رض) فسموا الحرورية نسبة الى

---

(١٣٢) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٢٥ .
(١٣٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٧٧- ٧٨ .
(١٣٤) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٢- ٨٣ .
(١٣٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٧-، ٦٥- ٦٦ ، ٧٢- ٧٣ .

هذا المكان كما سموا الخوارج لخروجهم على خليفتهم والجماعة. وقد أشير الى أن هذا الموقف أوضح التمايز بينهم وبين إتباع الخليفة علي المخلصين. فقد أورد الطبري عن أبي مخنف قوله: «ولما قدم علي الكوفة وفارقته الخوارج وثبت إليه الشيعة فقالوا: في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت، فقالت الخوارج: إستبقتم أنتم وأهل الشام الى الكفر كفرسي رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا وبايعتم عليا على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بسط علي يده فبايعناه قط الاّ على كتاب الله عزّوجل وسنّة نبيه ﷺ، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت»[136].

وقد ذكر أن ابن عباس دخل في مجادلات طويلة مع الخوارج من أجل إقناعهم بالتخلي عن موقفهم فلم يفلح[137]. ثم حاول الخليفة علي بن أبي طالب إستمالتهم الى موقفه بعد تذكيرهم بأن قبوله التحكيم جاء بناء على الحاحهم. فأقروا بأن ذلك كان كفراً منهم، وأنهم قد تابوا الى الله تعالى منه، وأن عليه أن يتوب منه ويتخلى عن تنفيذ تعهده بإجراء التحكيم، كي يعودوا الى مبايعته وطاعته. فرفض ذلك.. ثم أوضح لهم أن قبوله بتحكيم الرجال لا يعني التخلي عن حكم الله وحكم القرآن، بل هو في حقيقته تحكيم الرجال من أجل تفسير القرآن، فهذا القرآن «هو خط مسطور بين دفتين، لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال»[138].

ويبدو ان الخوارج لم يقتنعوا بحجج الخليفة علي بن ابي طالب (رض) بصورة تامة، وإنما وافقوا على مجاراته والعودة الى الكوفة على أمل الضغط عليه في عدم الدخول في التحكيم، فلما فشلوا في تحقيق أهدافهم، وقام الخليفة عليّ بن ابي طالب بارسال مبعوثه الى مكان التحكيم كما أوضحنا ذلك آنفا عادوا الى معارضتهم من جديد، وأخذوا يشغبون عليه في المسجد[139]. فقد ذكر الطبري ان علي بن ابي طالب (رض) قام يخطب فيهم في المسجد، فقال رجل من جانب المسجد: «لا حكم الاّ لله»، فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يحكّمون، فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل، أما ان لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا: لانمنعكم مساجد الله ان تذكروا فيها اسمه،

(١٣٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٤.
(١٣٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٤ – ٦٥.
(١٣٨) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٦.
(١٣٩) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٢ – ٧٣.

ولا نمنعكم الفيء مادامت ايديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا، ثم رجع الى مكانه الذي كان فيه من خطبته»[١٤٠].

لقد كان حرياً بالخوارج ان يقبلوا عرض الخليفة علي بن ابي طالب (رض) فيبقوا في صفوف الجماعة، ولهم ان يحتفظوا برأيهم ويدافعوا عنه بالحجة والبرهان، ولكن التعصب الشديد لرأيهم حملهم على اتهام مخالفيهم بالرأي بالكفر، ودفعهم للخروج عن طاعة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) والتهيوء لمقاتلته وسفك دماء المسلمين[١٤١].

لقد ذهب بعض الباحثين الى وصف الخوارج بالقراء الذين كرسوا حياتهم لقراءة القرآن والعبادة[١٤٢]. غير ان المسألة الجديرة بالتحقيق هي مدى استيعاب هؤلاء الناس لتعاليم القرآن وروحه الحقيقية. لقد أشارت المصادر الى ان معظم الخوارج الأوائل كانوا من «أعاريب بكر وتميم»[١٤٣] والاعراب بحكم ظروف حياتهم القاسية غير قادرين على التفقه في الدين وتكريس حياتهم لفهمه. لذا فقد قال القرآن عنهم: ﴿الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود الله﴾[١٤٤]. كما قال عنهم: ﴿قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾[١٤٥].

واذا كان من الصحيح القول ان هؤلاء الخوارج كانوا قد تركوا حياة الاعراب، واستقروا في البصرة والكوفة وسجلوا أنفسهم في ديوان الجند، ومن ثم فان من التجني النظر اليهم وكأنهم اعراب جفاة[١٤٦] فان من الصحيح ايضاً الاشارة الى ان الفترة القصيرة التي أمضاها هؤلاء في الأمصار، وهم يحملون سلاحهم للجهاد لم تكن كافية لتغيير طريقة حياتهم وتفكيرهم، ومن ثم فقد حافظ هؤلاء على قيم الحياة البدوية بعد تغليفها ببعض المظاهر الاسلامية.

---

(١٤٠) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٣.
(١٤١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٧– ٧٨.
(١٤٢) فلهوزن: الخوارج والشيعة، ص ١٤– ٢٢.
(١٤٣) الطبري: تاريخ، ج ٥، ص ٦٦.
(١٤٤) سورة التوبة، الآية ٩٧.
(١٤٥) سورة الحجرات، الآية ١٤.
(١٤٦) فلهوزن: الخوارج والشيعة، ص ١٦.

ثم ان الأمر الجدير بالمناقشة هو مدى الصلة بين مواقف الخوارج المتطرفة في رفض لتحكيم ، وبين الخوف من نتائجه التي قد يكون من بينها معاقبة قتلة عثمان (رض) علما بأن بعض رؤوس الخوارج مثل حرقوص بن زهير كانوا ضالعين في عملية قتله (١٤٧) .

يبدو مما تقدم أن فصل حركة الخوارج عن جذورها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتفسيرها باعتبارها حركة مثالية دينية قامت بسبب اختلاف في فهم نص القرآن الكريم ليس بالأمر الدقيق من الناحية العلمية ، وانما الأقرب الى الصحة التعامل معها على أساس أنها امتداد للصراع بين الحضارة والبداوة او الصراع بين الاتجاه الاسلامي وبين الاتجاه القبلي (١٤٨) .

لقد كان الخوارج يعبرون من خلال شعاراتهم عن عدم ادراكهم لفكرة الدولة ، وضيقهم بالسلطة المركزية التي نشأت عن قيام دولة الاسلام وتوحيدها العرب في اطاره «ويبدو عدم ادراكهم لفكرة الدولة من صيحتهم المشهورة : لا حكم الاّ لله. فعلق الخليفة علي بن ابي طالب قائلاً : كلمة حق يراد بها باطل ، نعم انه لا حكم الاّ لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا امرة الاّ لله وأنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر، وكان أول اعلان عن وجهتهم في الحكم قولهم : الأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عزّوجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه احتجاج جذري على استئثار قريش بالسلطة. وهكذا تظهر في حركة الخوارج النزعة القبلية في عدم الخضوع للسلطان وللحكم المركزي ، ويظهر في حركتهم السخط على قريش والتذمر من انفرادها بالخلافة» (١٤٩) .

وهكذا فقد استقر رأى الخوارج على الانفصال عن الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ومحاربته بعد ان رفض العودة عن المضي في ارسال ممثله الى التحكيم. فاجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب الراسبي فحثهم على مغادرة الكوفة بقوله : «فاخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال او الى بعض المدائن ، منكرين لهذه البدع المضلة» (١٥٠) ، فوافقوه على رأيه وانتخبوه أميرا عليهم وبايعوه في ١٠ شوال سنة ٣٧هـ فسار بهم حتى نزل منطقة النهروان ، وكاتب اتباعهم في البصرة للالتحاق بهم (١٥١) فوافقوه على رأيه ، وسار لمناصرته منهم خمسمائة رجل بقيادة مسعر بن فدكي

(١٤٧) الطبري : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٨٨ – ٤٨٩ ، ج ٥ ، ص ٧٢ .
(١٤٨) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٥٩ – ٦٠ .
(١٤٩) المرجع نفسه ، ص ٦٠ .
(١٥٠) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٧٤ .
(١٥١) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

التميمي[١٥٢]. فأصبح مجموع الخوارج المجتمعين في النهروان حوالي أربعة الآف رجل[١٥٣]. وبذلك لم يتجاوز عدد الخارجين هذه المرة ثلث عدد من خرجوا الى حروراء، مما يدل على نجاح الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في كسب من تبقى منهم الى جانبه.

وبعد فشل التحكيم كتب اليهم الخليفة علي بن ابي طالب (رض) يدعوهم الى الانضمام اليه في محاربة أهل الشام، فرفضوا دعوته، وكتبوا اليه: «أما بعد، فانك لم تغضب لربك، انما غضبت لنفسك، فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، والاّ فقد نابذناك على سواء ان الله لايحب الخائنين. فلما قرأ كتابهم آيس منهم، فرأى ان يدعهم ويمضي بالناس الى أهل الشام حتى يلقاهم فيناجزهم»[١٥٤].

وبينما كان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) يحشد اتباعه للتوجه بهم لمقاتلة أهل الشام جاءته الأخبار بأن الخوارج أخذوا يتعرضون لمن يخالفهم بالرأي بالقتل، فقتلوا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ وزوجته بطريقة بشعة وقتلوا نسوة آخرين. فآلم ذلك الخليفة عليا (رض) وجعل أتباعه يلحون عليه بأن يتوجه لقتال الخوارج قبل ان يتوجه لمقاتلة أهل الشام. غير ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) لم يتخذ القرار بمقاتلتهم الاّ بعد ان رفضوا تسليمه الجناة لمعاقبتهم وزادوا على ذلك بقتلهم مبعوثه الذي أرسله اليهم[١٥٥]. وبعثوا اليه قائلين: «كلنا قتلتهم، كلنا نستحل دماءهم ودماءكم»[١٥٦].

لقد توجّه الخليفة عليّ بن أبي طالب (رض) لمحاربتهم على رأس جيش كبير، ولم يبدأهم القتال الاّ بعد أن منح الأمان لكل من يحب أن ينصرف عن مقاتلته مالم يكن قد ارتكب جناية قتال فانصرف من الخوارج حوالي الف ومائتي رجل، فلم يبق في ساحة المعركة منهم سوى الفين وثمانمائة رجل، أصروا على مقاتلته[١٥٧]. ولتفوق جيش الخليفة

(١٥٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٦- ٧٧.
(١٥٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨٦.
(١٥٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨٧.
(١٥٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨١- ٨٢.
(١٥٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨٣.
(١٥٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨٥- ٨٦.

وهكذا أخذت روح التفكك تسري في أوصال جبهة أهل العراق ، حيث ضعفت إعزيمتهم عن المضي في القتال بعد معركة صفين ونتائج التحكيم وخروج الخوارج ومقاتلتهم للخليفة علي بن ابي طالب (رض).

رابعا : تفكك جبهة العراق :

وقد ترتب على الوضع الجديد ان بدأت روح الانتقاض تزداد بين اتباع الخليفة علي ابن أبي طالب (رض) وفي الولايات التابعة لحكمه (١٦٤). وكان أبرز مظاهر ذلك الانتفاض ما يأتي :

١ – خروج الخريت بن راشد :

كان الخريت بن راشد من أتباع الخليفة علي بن ابي طالب (رض) الذين التحقوا مع ثلثمائة رجل من قومه بني ناجية : « قدموا معه من البصرة ، وكانوا قد خرجوا اليه يوم الجمل وشهدوا معه صفين والنهروان » (١٦٥). فلما كان التحكيم وظهرت نتائجه جاء الى الخليفة على بن ابي طالب (رض) يسير بين ثلاثين من أصحابه ، فقال له : « والله ياعلي لاأطيع أمرك ، ولا أصلي خلفك ، واني غدا لمفارقك ، وذلك بعد تحكيم الحكمين » (١٦٦).

ويبدوا أن طبيعة معارضة الخريت بن راشد للخليفة على بن ابي طالب (رض) تختلف عن معارضة الخوارج له ، اذ كان الخريت يرى ضرورة قبول الخليفة علي بن ابي طالب لحكم الحكمين والتخلي عن الخلافة ليعود أمرها شورى بين المسلمين (١٦٧). وقد عبّر عن رأيه هذا بقوله : « ان عليا حكم حكما ورضي به ، فخلعه حكمه الذي ارتضاه لنفسه ، فقد رضيت انا من قضائه وحكمه ماارتضاه لنفسه ، وهذا كان الرأي الذي خرج عليه من الكوفة » (١٦٨).

---

(١٦٤) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٢٢.
(١٦٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١١٣.
(١٦٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٣ – ١١٤.
(١٦٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٢٠ ؛ فهمي : تاريخ الدولة العربية ، ص ٨٠.
(١٦٨) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٢٥.

بن ابي طالب (رض) الكبير عليهم ، وذلك لأنه كان أعده لمحاربة أهل الشام فقلد
كن من القضاء عليهم بيسر وسهولة. « فأهمدوا في الساعة »(١٥٨) . ولم يبق منهم سوى
بعاثة رجل كانوا قد سقطوا جرحى في اثناء القتال ، فأمر بهم الخليفة علي بن ابي
الب (رض) فدفعوا الى عشائرهم ، وقال : احملوهم معكم فداووهم ، فاذا برئوا فوافوا
م الكوفة ، وخذوا ما في عسكرهم من شيء »(١٥٩).

وبذلك تم توجيه ضربة ساحقة الى حركة الخوارج ، ولم يعد بامكانها تحدي الخليفة
علي بن ابي طالب (رض) وجها لوجه ، ولكن كثيرا من عناصرها واصلت عملها وكيدها
ضده بصورة خفية ، وكما سنلاحظ ذلك لاحقا.

ولاتتفق المصادر في تحديد تاريخ معركة النهروان التي تم فيها للخليفة علي بن ابي
طالب (رض) القضاء على مقاومة الخوارج ، فقد أورد الطبري رواية تشير الى ان تلك
المعركة قد وقعت في شهر صفر سنة ٣٨ هـ(١٦٠) . في حين يذهب كل من الواقدي(١٦١)
وابن خياط(١٦٢) الى انها قد وقعت في شهر شعبان من سنة ٣٨ هـ . وربما كان التاريخ
الأخير هو الأقرب للصواب لأن هذه المعركة قد وقعت بعد فشل التحكيم ، وقد رجح
البحث ان واقعة التحكيم قد حصلت في شهر شعبان من سنة ٣٨ هـ / ٦٥٨ م.

٦- تجدد الصراع بين الخليفة علي ومعاوية :

بعد انتصار الخليفة عليّ بن ابي طالب (رض) على الخوارج في النهروان قرر المضي
في خطته لمحاربة أهل الشام ، غير أنه فوجئ بأن جيشه لم يكن مستعدا لمطاوعته في هذا
المجال ، وأخذوا يعتذرون اليه بأنهم متعبون ، وغير مستعدين لخوض الحرب بصورة جيدة ،
فاضطر لقبول اعتذارهم ، وأمرهم « ان يلزموا عسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وان
يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم ، فأقاموا فيه اياما ، ثم تسللوا من
معسكرهم ، فدخلوا الا رجالاً من وجوه الناس قليلا ، وترك المعسكر خاليا ، فلما رأى ذلك
دخل الكوفة ، وانكسر اليه رأيه في المسير »(١٦٣)

(١٥٨) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٨٦.
(١٥٩) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص [illegible]
(١٦٠) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٩٢.
(١٦١) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٧١.
(١٦٢) ابن خياط : تأريخ ، ج ١ ، ص ١٨٠.
(١٦٣) الطبري : تأريخ ، ج ٥ ، ص ٨٩- ٩٠.

وهكذا فقد خرج ابن زاشد ومن تبعه عن طاعة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) تجه معه اصحابه الى الأحواز عن طريق المذار، وقد تابعهم في دعوتهم بعض أهل لأحواز فامتنعوا عن دفع الخراج، فأرسل اليهم الخليفة علي بن ابي طالب (رض) جيشا ن الكوفة تحت قيادة معقل بن قيس التميمي فهزمهم عند رامهرمز. عند ذلك اضطر الخريت الى العودة الى بلاده في البحرين، حيث أخذ يؤلب قومه بني ناجية على الخليفة علي بن ابي طالب (رض) فأفلح في كسبهم الى صفّه، فضلا عن قبائل عبد القيس، لذا فقد اضطر معقل بن قيس الى مواصلة حربة ضد الخريت في البحرين حتى تم له القضاء عليه وتشتيت اتباعه[١٦٩].

٢ – امتناع بعض بلدان المشرق عن اداء الخراج :

أدى انشغال الخليفة على بن ابي طالب (رض) في حربة مع معاوية وأنصاره الى تطلع أهل البلاد المفتوحة الى الخروج على طاعته، والامتناع عن دفع الخراج، فقد ذكر الطبري أنه حين ارسل الخليفة علي بن ابي طالب (رض) جعدة بن هبيرة الى خراسان بعد رجوعه من صفين وجد أن أهل ابرشهر «قد كفروا وامتنعوا، فقدم على علي، فبعث خليد بن قرة اليربوعي، فحاصر أهل نيسابور حتى صالحوه، وصالحه أهل مرو»[١٧٠].

ولم يقتصر الأمر على خروج هؤلاء فقط، بل إن أهل فارس وكرمان قد خرجوا على الطاعة ايضا وامتنعوا عن دفع الخراج «فغلب أهل كل ناحية على مايليهم، وأخرجوا عمالهم»[١٧١]. فقام الخليفة علي بن ابي طالب بتعيين زياد بن أبيه واليا عليهم «ووجهه في أربعة آلاف، فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا»[١٧٢].

---

(١٦٩) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٣ – ١٣٢؛ فلهوزن: تاريخ الدولة العربية، ص ٨٠ – ٨١.
(١٧٠) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٣ – ٦٤.
(١٧١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٧.
(١٧٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٧.

٢ – امتداد سلطان معاوية الى مصر:

كانت مصر من ضمن الولايات التي منحت ولاءها للخليفة علي بن ابي طالب (رض)، فتعاقب على حكمها ثلاثة ولاة من ولاته هم: محمد بن ابي حذيفة، وقيس بن سعد بن عبادة، ومحمد بن ابي بكر، غير انها لم تعدم وجود أنصار للخليفة عثمان بن عفان (رض)، وقد شعر هؤلاء بالحزن الشديد على مقتله، ومع ذلك فقد اتخذوا موقفاً محايداً في الصراع الذي دار بين معاوية وعلي بن ابي طالب (رض) بسبب الموقف الحكيم الذي اتخذه قيس بن سعد منهم. الاّ ان الموقف بدأ يتغير حينما عيّن محمد بن ابي بكر على ولاية مصر، اذ بدأ يعمل على حملهم على اتخاذ موقف واضح في مناصرة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ضد معاوية في وقت بدأت فيه كفة الصراع تميل لصالح معاوية بعد ظهور نتائج التحكيم، فأرسل محمد جيشاً لمحاربتهم، وكانوا يقيمون في قرية من قرى دلتا مصر تدعى «خربتا»، فهزموا جيشه، وأعلنوا خروجهم على طاعته، وقد أفسح هذا التطور الطريق امام معاوية بن ابي سفيان لمد سلطاته الى مصر، فأرسل جيشاً مؤلفاً من ستة الآف رجل من أهل الشام بقيادة عمرو بن العاص فدخلها، وقد انضم اليه أهل خربتا ومن تابعهم من أهل مصر، ولم يستطع محمد بن ابي بكر مقاتلتهم بصورة جدية لأن اتباعه كانوا قد تفرقوا عنه، ففر من امامهم هارباً ثم القي القبض عليه بعد ذلك فقتل، وبذلك أصبحت مصر في حوزة معاوية بكل ماتملكه من واردات وقوة[١٧٣].

ان التطورات الآنفة الذكر قد ساعدت على تقوية مركز معاوية كثيراً، مما شجعه على اتخاذ زمام المبادرة في تحدي سلطة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) في الولايات التابعة لحكمه مباشرة مثل البصرة والكوفة والمدينة ومكة واليمن، اذ أخذ يرسل سرايا ومبعوثين للعمل على دعوة الناس للدخول في طاعته وطرد عمال الخليفة علي بن ابي طالب (رض)[١٧٤]، ولم يظهر عمّال الخليفة علي بن أبي طالب (رض) من العزم والحزم مايوقف تحركات معاوية عند حدها، بل ان ترددهم وعجزهم قد شجع معاوية على ارسال سرايا للقيام بغارات مسلحة على قلب العراق، وقد أورد الطبري العديد من الروايات عن ذلك، كان من ابرزها ان معاوية قام في سنة ٣٩ هـ بتوجيه سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل «وأمره أن يأتي هيت فيقطعها، وأن يغير عليها ثم يمضي حتى يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها. فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً، ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلي تكون

(١٧٣) الطبري تاريخ، ج ٥، ص ٩٤ – ١٠٥.
(١٧٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٣ – ١٤٠.

خمسمائة رجل ، وقد تفرقوا فلم يبق منهم الا مائة رجل ، فقاتلهم ، فصبر له أصحاب علي مع قلتهم ، ثم حملت عليهم الخيل والرجالة ، فقتلوا صاحب المسلحة ، وهو أشرس بن حسان البكري في ثلاثين رجلاً ، واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال ، وأموال أهلها ، ورجعوا الى معاوية . وبلغ الخبر عليا فخرج حتى أتى النخيلة ، فقال له الناس : نحن نكفيك ، قال : ماتكفونني ولا أنفسكم ، وسرح سعد بن قيس في اثر القوم ، فخرج في طلبهم حتى حاز هيت ، فلم يلحقهم ، فرجع »(١٧٥) .

لقد دفعت هذه الأوضاع الخليفة علي بن ابي طالب (رض) الى اليأس من تحول الموقف لصالحه ، ونسبت اليه العديد من الأقوال التي يشكو فيها من ضعف اصحابه وترددهم وعدم استجابتهم لأوامره وتوجيهاته(١٧٦) ، فلا غرابة ان يقبل ماعرضه معاوية عليه في حدود سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م من شروط للمهادنة ، فيتوقف كل منها عن محاربة خصمه « ويكون لعلي العراق ، ولمعاوية الشأم ، ولايدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولاغارة ، ولاغزو »(١٧٧) .

فقد أورد الطبري رواية عن ابن اسحاق جاء فيها : « لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية الى علي : أما اذا شئت فلك العراق ولي الشام ، وتكف السيف عن هذه الأمة ، ولا تهريق دماء المسلمين ، ففعل ذلك ، وتراضيا على ذلك ، فأقام معاوية بالشأم بجنوده يجبيها ، وما حولها ، وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده »(١٧٨) .

لقد كان واضحاً ان هذا الاتفاق هو هدنة مؤقتة املتها الضرورات الواقعية ، ولابد ان كلا من الخليفة علي بن ابي طالب (رض) ومعاوية بن ابي سفيان كانا يفكران بالبحث عن الوسائل والطرق التي تحسم الصراع لصالح احدهما ، اذ لايمكن ان يجتمع سيفان في غمد واحد ، وبخاصة وان هنالك من الادلة مايشير الى ان معاوية كان يخطط للحصول على مبايعة اهل الشام وغيرهم له بالخلافة ، بل ان هنالك من الدراسات مايؤكد انه قد حصل على مبايعة اهل الشام له بمنصب الخلافة في اول سنة ٤٠ هـ في مدينة القدس(١٧٩) .

---

(١٧٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(١٧٦) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ١٣٤ ؛ الامام علي : نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ١٨٧ – ١٩٠ .
(١٧٧) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤٠ .
(١٧٨) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٤٠ .
(١٧٩) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ٩٦ – ٩٨ .

خامسا : استشهاد الخليفة علي (رض) ونهاية عصر الخلفاء الراشدين :

ان من غرائب الاقدار ان تأتي نهاية الخليفة علي بن ابي طالب (رض) واستشهاده عل يد أناس كانوا في يوم من الأيام من اشد الناس اخلاصا وحبا له ، ثم انقلبوا عليه ، وخرجوا عن طاعته بسبب اختلافهم معه في قبول التحكيم ، فغدوا خوارج يتهمونه بالكفر ويستحلّون قتاله ودمه .

وقد أشارت المصادر الى ان ثلاثة من الخوارج اجتمعوا بمكة فتذاكروا امر الناس ، وعابوا على ولاتهم ، ثم ذكروا اصحابهم الذين قتلوا في معركة النهروان فقرروا الثأر لهم من الرجال الذين عدوهم مسؤولين عما اصابهم ، وأصاب المسلمين عامة من كوارث وانقسامات . وكان هؤلاء المسؤولون ثلاثة رجال هم : علي بن ابي طالب (رض) ، ومعاوية بن ابي سفيان ، وعمرو بن العاص . فقال عبدالرحمن بن ملجم : انا لكم بعلي ابن ابي طالب ، وقال البرك بن عبد الله : انا اكفيكم معاوية بن ابي سفيان ، وقال عمرو ابن بكير انا اكفيكم عمرو بن العاص [١٨٠] .

« فتعاهدوا على ذلك ، وتعاقدوا لاينكص رجل منهم عن صاحبه الذي سمي ويتوجه اليه حتى يقتله او يموت دونه ، فاتعدوا ليلة سبع عشرة من رمضان . ثم توجه كل رجل منهم الى المصر الذي فيه صاحبه » [١٨١] .

لقد أشارت المصادر الى ان عمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان قد افلتا من محاولة الاغتيال وذلك لأن عمرو بن العاص لم يحضر صلاة الصبح في ذلك اليوم لوعكة ألمت به ، اما معاوية فقد أصيب بجرح خفيف لم يلحق به كبير اذى [١٨٢] . وبذلك لم تنجح المؤامرة في تحقيق اهدافها الاّ بالنسبة لعلي ابن ابي طالب (رض) .

فقد أشير الى ان ابن ملجم توجه الى الكوفة ، فأخبر اصحابه فيها بمقصده ، وكان يزورهم ويزورونه ، فزار يوما نفرا من تميم الرباب ، فرأى امرأة منهم يقال لها قطام بنت شجنة ، وكانت تعد الخليفة علي بن ابي طالب (رض) مسؤولا عن قتل ابيها واخيها في معركة النهروان ، فأعجبته فخطبها ، فقالت : لا اتزوجك حتى تسمي لي مهرا فقال : لا تسأليني شيئا الاّ اعطيتك ، فقالت : ثلاثة آلاف ، وقتل علي بن ابي طالب . فقال : والله

---

(١٨٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٥ – ٣٦ ، الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .
(١٨١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٦ .
(١٨٢) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

ماجاء بي الى هذا المصر الاّ قتل علي بن ابي طالب ، وقد أتيتك ما سألتني ولقي عبدالرحمن بن ملجم شبيب بن بجرة الاشجعي فأعلمه مايريد ودعاه الى ان يكون معه فاجابه الى ذلك (١٨٣) .

وقد كمن هذان الشخصان للخليفة علي بن ابي طالب (رض) قبيل صلاة الصبح ، ومعهما سيفاهما في المسجد مقابل السدة التي يخرج منها عادة ، فلما حان وقت الصلاة خرج الخليفة علي بن ابي طال (رض) الى المسجد « فاعترضه الرجلان ، فقال بعض من حضر ذلك ، فرأيت بريق السيف ، وسمعت قائلا يقول : لله الحكم ياعلي لالك !ثم رايت سيفا ثانيا فضربا جميعا ، فأما سيف عبدالرحمن بن ملجم فأصاب جبهته الى قرنه ووصل الى دماغه ، وأما سيف شبيب فوقع في الطاق ، وسمعت عليا (رض) يقول : لايفوتنكم الرجل ، وشد عليها الناس من كل جانب ، فأما شبيب فأفلت وأخذ عبدالرحمن بن ملجم ، فأدخل على علي (رض) ، فقال : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، فان أعش فأنا أولى بدمه عفوا وقصاصا ، وان أمت فالحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين» (١٨٤) .

لقد كانت اصابة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) اصابة قاتلة ، كما ذكر ان سيف عبدالرحمن بن ملجم كان مسموما ، لذا لم يمكث الخليفة علي (رض) بعد اصابته سوى يوم الجمعة وليلة السبت ، ثم توفي شهيدا ليلة الأحد ، لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م (١٨٥) ، عن عمر ناهز الثالثة والستين سنة (١٨٦) .

لقد انتهى بوفاة الخليفة علي بن ابي طالب (رض) عصر الخلفاء الراشدين الذين ساروا على سنّة النبي ﷺ في ادارة شؤون المسلمين واجتهدوا في مواجهة التطورات المستجدة ، فاتفقوا واختلفوا ، وكانو في الحالتين مأجورين عند الله تعالى على حسن قصدهم ، لأنهم بذلوا اقصى مالديهم من جهد وطاقة في طلب الحق والحقيقة ، وقد قرر القرآن الكريم انه : ﴿لايكلف الله نفسا الاّ وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (١٨٧) .

---

(١٨٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ ، ٣٦ .
(١٨٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦ – ٣٧ .
(١٨٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧ .
(١٨٦) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٥١ – ١٥٢ .
(١٨٧) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

[illegible]

الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ)

معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ)

بعد استشهاد الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بايع المسلمون في الكوفة ولده الحسن في رمضان من سنة ٤٠ هـ في نفس الوقت الذي بويع فيه معاوية بالخلافة في القدس وقد عبّر الحسن في اليوم الأول الذي تولى فيه الخلافة عن رغبته في المسالمة وتجنب إراقة الدماء مما يؤكد نفور الحسن من الحرب وزهده في الخلافة ويبدو أن الأحداث الدامية التي رافقت خلافة عثمان بن عفان وأبيه الإمام علي بن أبي طالب كانت قد تركت أثراً عميقاً في نفسه. أما معاوية فقد سارع بتوجيه أحد قواده على رأس جيش إلى العراق فوجه [illegible] لملاقاته وبعد وصول معاوية إلى الأنبار تحرك له الحسن الذي كان معه جيش [illegible] وانصرفوا عن الحرب فقط، فنهم [illegible] بدعوتهم إلى الجماعة ونبذ الفرقة ولما رأى الحسن أن الأمر على أنفسهم وأن أصحابه يتربصون به كتب إلى معاوية في الأنبار يعرض عليه الصلح والتنازل عن الخلافة له بشروط يشترطها فلم يتردد معاوية في الاستجابة لجميع شروط الحسن فسار إلى الكوفة والتقى بمعاوية فيها في أواخر شهر ربيع الأول من سنة ٤١ هـ وسمي هذا العام عام الجماعة لاجتماع المسلمين على خليفة واحد.

وقد سميت الدولة الجديدة بالدولة الأموية نسبة إلى أمية بن عبد شمس جد الأمويين الأكبر، واتخذ معاوية مدينة دمشق عاصمة لدولته لأنها كانت موطن أنصاره الذين أخلصوا له واستقرت له الأمور في كافة أقاليم الدولة الإسلامية فقد تخلص من خطر العلويين الذين كانوا متفرقين في الحجاز والعراق ومصر [illegible] ولاة معاوية من [illegible] أن العراق [illegible] على [illegible] [illegible] نقل [illegible] فكان أخطر المعارضين لخلافة معاوية هم الخوارج الذين أجمعوا في بداية خلافته مدينة الكوفة فوجه معاوية جيشاً من أهل الشام لقتالهم [illegible] إلى أهل الكوفة فاستطاعوا أن يهزموا

خوارج وتوالت ثورات الخوارج ضد الامويين في الكوفة الى ان تمكن جند الشام
الكوفة من القضاء عليهم . كذلك شهدت مدينة البصرة صراعا شديدا
بين الامويين والخوارج الى ان تمكن والي البصرة زياد بن ابيه من اخماد
حركة الخوارج بمساعدة اهل البصرة .

أما انجازات معاوية الادارية فقد اقدم على استحداث بعض التغييرات
وادخال نظم جديدة تتفق مع ظروف الدولة وطبيعة البلاد فانشا استحدث ديوان
البريد وتنظيمه حرصا على سرعة وصول الاخبار الى مركز الخلافة كما انشأ
ديوان الخاتم لحفظ الكتب التي تصدر عن دار الخلافة او عن عماله في الامصار
بختم النسخة الاصلية المرسلة بخاتم الخليفة ثم تحزم وتختم بالشمع كما عهد
لادارة المالية الى جماعة من اهل الذمة ممن عرفوا بكفاءتهم في هذه الاعمال مما
ساعد على تقوية وتدعيم اليمنية الاسلامية ومضاعفة امكانياتها لمواجهة التحديات
التي تعترضها .

اما عن الفتوح الاسلامية فقد اتجه المسلمون الى الفتح برا وبحرا شمالا
في الشرق توغل المسلمون في بلاد السند والهند . اما حروب معاوية مع الدولة البيزنطية
فقد بدأت منذ بداية خلافته وكانت اعظم حملة ارسلها كانت سنة ٤٨ هـ
الى القسطنطينية التي حاصرها المسلمون لعدة اشهر لكنهم لم يتمكنوا من
فتحها بسبب حصونها المنيعة وكثرة الامطار والثلوج ، اما في الغرب فقد سار
عقبة بن نافع الفهري نحو افريقية (سنة ٥٠ هـ) وتمكن من فتحها واسلم على يديه
كثير من البربر واسس مدينة القيروان وبنى فيها المسجد ودار الامارة وجعلها قاعدة
لعمليات الاسلامية التي استطاعت فتح بلاد المغرب حتى وصلت الى المحيط الاطلسي

اما الشيء المهم هو مسألة الوراثة في الحكم ان اول من بدء بهذا العمل في الاسلام
هو اشار عليه المغيرة بن شعبة بولاية العهد ليزيد بن معاوية عندما تولاه
العهد سوف تجب المسلمين الفتن والاقتتال وتسفك الدماء فاقتنع معاوية
بهذا الرأي فاخذ البيعة لابنه يزيد سالكا كل الوسائل الى ذلك تارة
بالترغيب واخرى بالترهيب والتهديد وبذلك انتقلت الخلافة من خلافة
اسلامية تقوم الشورى والانتخاب الى ملكية وراثية .